من رحم الأرض

الجزء الخامس 5

ممالك وشعوب بلاد الشام القديمة

والحثيون الفلستيون

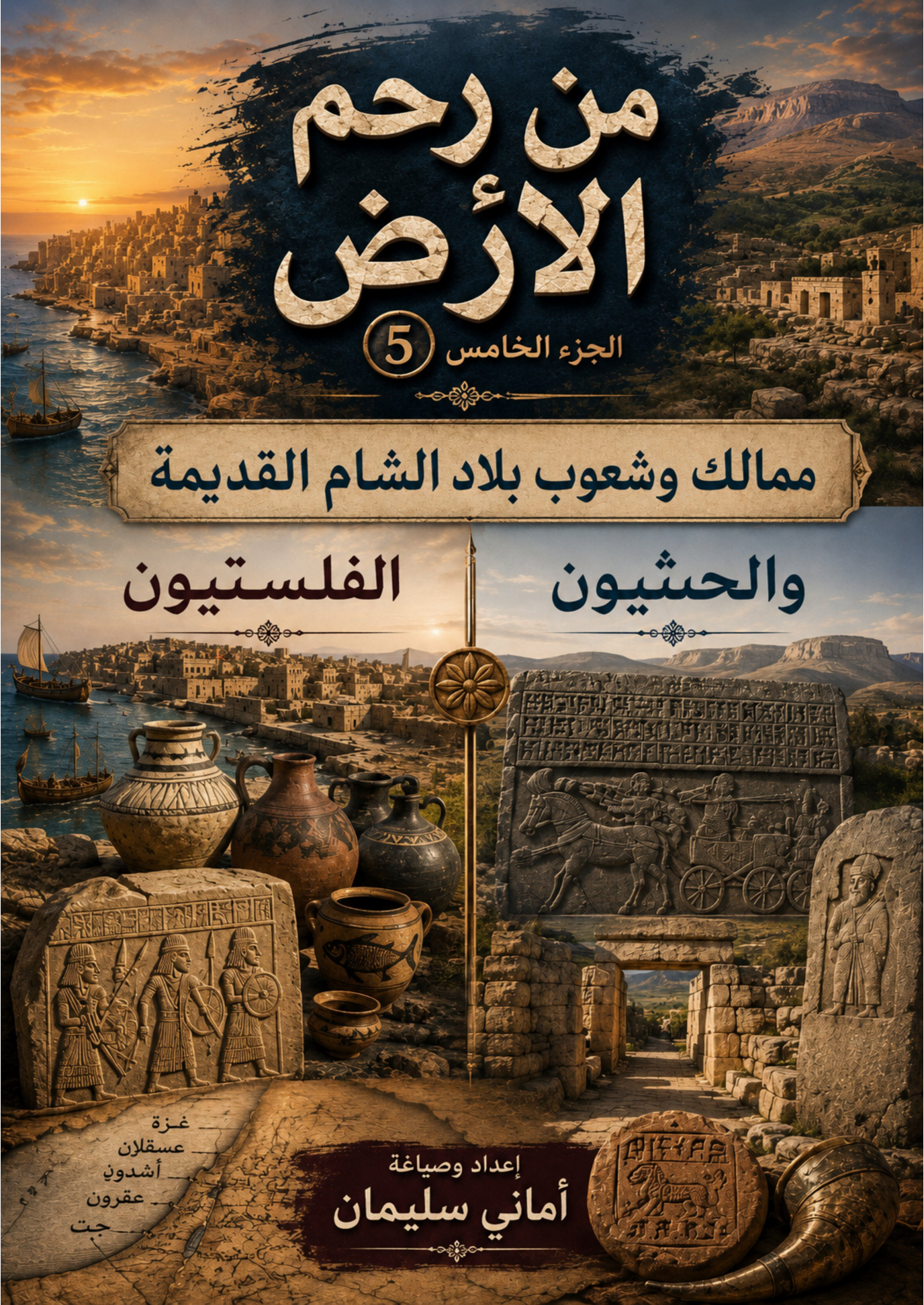

إعداد وصياغة
أماني سليمان

من رحم الأرض

الجزء الخامس

ممالك و شعوب بلاد الشام القديمة

الفلستيون و الحثيون

إعداد وصياغة

أماني سليمان

من سواحل البحر إلى أعماق الأناضول

تبدأ حكاية الفلستيين والحثيين

شعوبٌ عبرت صفحات التاريخ

وتركت خلفها مدنًا وممالك وآثارًا

ما زالت الأرض تحفظ صداها

مقدمة

على الساحل الجنوبي لبلاد الشام، وبين البحر المتوسط والسهول والمدن القديمة، ظهر شعبٌ ترك أثرًا واضحًا في تاريخ المنطقة، ثم دخل في صراعات وتحالفات مع القوى والشعوب المحيطة به، قبل أن يذوب تدريجيًا في الممالك والإمبراطوريات التي تعاقبت على الشام.

إنهم الفلستيون، الذين ارتبط اسمهم في المصادر القديمة بخمس مدن رئيسية هي غزة، وعسقلان، وأشدود، وعقرون، وجت. وقد شكّلت هذه المدن مراكز سياسية واقتصادية وعسكرية مهمة، ونشأت بينها علاقات لم تكن دائمًا قائمة على الوحدة، بل عرفت التنافس والتعاون بحسب الظروف.

لكن قصة الفلستيين تبدأ قبل ظهور مدنهم بوقت طويل، مع واحدة من أكثر الظواهر غموضًا في تاريخ شرق البحر المتوسط شعوب البحر ففي أواخر العصر البرونزي، شهدت المنطقة تحولات واسعة رافقتها هجرات واضطرابات وسقوط ممالك ومراكز حضارية كبرى. وتظهر في السجلات المصرية جماعة عُرفت باسم قريب من «بلست»، ارتبطت بهذه التحولات، ثم ظهرت آثار وجود الفلستيين في الساحل الجنوبي لبلاد الشام ومنها لاحقاً جاء اسم فلسطين الذي أصبح اسماً جغرافياً للمنطقة ثم اسماً للشعب الفلسطيني في العصر الحديث

ومن هنا يبدأ السؤال الذي ما زال يثير نقاشًا بين الباحثين من أين جاء الفلستيون؟

هل كانوا إحدى جماعات شعوب البحر التي وصلت إلى الساحل بعد اضطرابات شرق المتوسط؟

وهل جاءوا من مناطق بحر إيجة أو الأناضول؟

أم أن قصتهم أكثر تعقيدًا، بحيث امتزجت جماعات وافدة بالسكان المحليين، وتكوّن مجتمع جديد من خلال التفاعل والهجرة والاستقرار؟

لا تقدم لنا الأدلة إجابة بسيطة ونهائية، ولذلك فإن دراسة الفلستيين لا تعتمد على الروايات القديمة وحدها، بل تجمع بين النقوش المصرية، والآثار، وأنماط الاستيطان، والفخار، والأسلحة، والعادات الدينية، والتحليل المقارن للمجتمعات التي ظهرت في المنطقة خلال العصر الحديدي.

ومع مرور الزمن، لم يبقَ الفلستيون مجرد جماعات وافدة؛ بل أصبحوا جزءًا من المشهد السياسي في بلاد الشام أقاموا مدنًا قوية، وطوّروا ثقافة مادية مميزة، ومارسوا التجارة والحرب، ودخلوا في علاقات مع مصر والكنعانيين والإسرائيليين، كما واجهوا لاحقًا ضغط الإمبراطورية الآشورية التي أخذ نفوذها يتوسع في المنطقة.

ومن بين صفحات تاريخهم ظهرت أسماء وقصص أصبحت مشهورة في الروايات القديمة، وفي مقدمتها قصة شمشون ودليلة، وهي قصة تجمع بين الصراع السياسي والذاكرة الأدبية، لكنها تطرح في الوقت نفسه سؤالًا مهمًا

إلى أي مدى يمكن استخدام الروايات القديمة لإعادة بناء التاريخ الفعلي للفلستيين؟

ولذلك لن تكون هذه الرحلة مجرد سرد للحروب والملوك والمدن، بل محاولة لفهم مجتمع كامل كيف عاش الفلستيون؟ ماذا أكلوا؟ كيف بنوا مدنهم؟ ما الآلهة التي عبدوها؟ كيف كانت صناعاتهم وفنونهم؟ ماذا تخبرنا أوانيهم الفخارية عن أصولهم واتصالاتهم؟ وكيف تغير مجتمعهم مع مرور الزمن؟

ثم يأتي السؤال الأخير، وربما الأصعب ماذا حدث للفلستيين؟

كيف انتقلوا من قوة إقليمية لها مدنها ومراكزها السياسية إلى شعب لم يعد يظهر بوصفه كيانًا مستقلًا في المراحل اللاحقة من تاريخ المنطقة؟ وهل اختفوا فعلًا، أم أنهم اندمجوا تدريجيًا في المجتمعات والممالك التي تعاقبت على الساحل الجنوبي لبلاد الشام؟

إن قصة الفلستيين، في النهاية، ليست قصة شعب ظهر فجأة ثم اختفى فجأة؛ إنها قصة هجرة واستقرار وتفاعل وصراع وتغير

ثقافي، وهي أيضًا قصة هوية ما زالت آثارها تفتح أسئلة أكثر مما تقدم إجابات نهائية.

ومن بين أطلال غزة وعسقلان وأشدود وعقرون وجت، وبين النقوش المصرية واللقى الأثرية والروايات القديمة، نحاول أن نعيد رسم صورة هذا الشعب الذي عاش على تخوم البحر، وترك بصمته في تاريخ بلاد الشام القديمة.

من أين جاء الفلستيون؟

قبل أن تظهر المدن الفلستية الخمس كقوى معروفة على الساحل الجنوبي لبلاد الشام، كانت منطقة شرق البحر المتوسط تمر بواحدة من أكثر الفترات اضطرابًا في تاريخ العالم القديم. ففي أواخر العصر البرونزي، بدأت ممالك ومراكز تجارية كانت قد ازدهرت لقرون تواجه أزمات متلاحقة، وتعرضت بعض المدن للدمار، واضطربت طرق التجارة، وتحركت جماعات بشرية عبر مناطق واسعة من البحر والبر.

وفي قلب هذه الأحداث ظهر اسمٌ غامض في المصادر المصرية شعوب البحر لم يكن «شعوب البحر» اسمًا لشعب واحد بالضرورة، وإنما مصطلح حديث أطلقه الباحثون على مجموعة من الجماعات التي ورد ذكرها في النصوص المصرية خلال الفترة التي شهدت تلك الاضطرابات وتذكر النقوش المصرية أسماء متعددة لهذه الجماعات، ومن بينها جماعة عُرفت باسم

قريب من بلست، وهو الاسم الذي يربطه كثير من الباحثين بالفلستيين الذين ظهروا لاحقًا في الساحل الجنوبي لبلاد الشام.

وتأتي أهم الشهادات من عهد الفرعون رمسيس الثالث، الذي واجه موجات من الهجمات والتحركات في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد تقريبًا. وتصور النقوش المصرية تلك الجماعات بوصفها خطرًا عسكريًا وصل إلى حدود مصر، بينما تشير الأدلة إلى أن بعض هذه الجماعات لم تختفِ بعد هزيمتها، بل استقرت في مناطق من شرق البحر المتوسط.

وهنا تبدأ إحدى أهم حلقات قصة الفلستيين.

فبحسب الصورة التي تقدمها الأدلة الحالية، ظهرت في جنوب بلاد الشام خلال العصر الحديدي المبكر جماعات تحمل عناصر ثقافية جديدة، كان لها حضور واضح في مواقع ارتبطت لاحقًا بالمدن الفلستية وكان من أبرز ما لفت انتباه علماء الآثار الفخار الفلستي المبكر، الذي يحمل خصائص تتصل بتقاليد بحر إيجة، إلى جانب عناصر محلية من بلاد الشام.

وهذا الفخار مهم للغاية، لأنه يقدم لنا شيئًا لا تستطيع الروايات القديمة وحدها تقديمه أثرًا ماديًا يمكن تتبعه زمنيًا ومكانيًا.

لكن الفخار وحده لا يستطيع أن يخبرنا بأن شعبًا كاملًا هاجر من مكان محدد إلى مكان آخر فقد تنتقل الأشكال والزخارف من

خلال التجارة والتبادل الثقافي، وقد يتبنى السكان المحليون أساليب جديدة دون أن تتغير أصولهم السكانية بالضرورة.

ولهذا بدأ السؤال يأخذ شكلًا أكثر تعقيدًا

هل كان الفلستيون مهاجرين قدموا بأعداد كبيرة من مناطق بحر إيجة؟

أم أنهم كانوا خليطًا من جماعات مختلفة وصلت إلى الساحل واندمجت مع السكان المحليين؟

أم أن مجموعة صغيرة من الوافدين كان لها تأثير ثقافي كبير على مجتمع محلي أوسع؟

هذه الاحتمالات ليست متناقضة بالضرورة، وقد يكون الواقع التاريخي أكثر تعقيدًا من أي نموذج منفرد.

آثار بحر إيجة في الساحل الجنوبي

من أبرز الأدلة التي دفعت الباحثين إلى ربط الفلستيين بشرق بحر إيجة وجود عناصر مادية تشبه ما كان معروفًا في تلك المناطق خلال الفترة نفسها.

ويظهر ذلك بوضوح في صناعة الفخار وبعض الزخارف وأنماط الأواني، إضافة إلى بعض جوانب العمارة والعادات الغذائية وقد لاحظ علماء الآثار أن الثقافة التي ظهرت في المواقع الفلستية

المبكرة لم تكن نسخة من ثقافة بحر إيجة، كما لم تكن استمرارًا بسيطًا للثقافة الكنعانية السابقة، بل بدت وكأنها مزيج جديد نشأ من التفاعل بين الوافدين والسكان المحليين.

وهذه النقطة مهمة جدًا لفهم هوية الفلستيين.

فحتى لو ثبت أن جزءًا من أسلافهم جاء من مناطق غربية، فإن الفلستيين الذين نعرفهم تاريخيًا لم يكونوا ببساطة شعبًا من بحر إيجة يعيش في بلاد الشام. لقد عاشوا أجيالًا في الساحل، وتأثروا بالبيئة المحلية، وتفاعلوا مع الكنعانيين والمصريين وغيرهم، وطوّروا مجتمعًا خاصًا بهم.

ومع مرور الوقت، أصبحت هويتهم مرتبطة بالأرض التي استقروا فيها هل جاءوا من اليونان؟

هذه واحدة من أكثر الأفكار شيوعًا عند الحديث عن أصل الفلستيين، لكنها تحتاج إلى قدر من الحذر.

فالتشابهات الثقافية بين الفلستيين وبعض مناطق بحر إيجة قوية ومهمة، لكنها لا تعني بالضرورة أن جميع الفلستيين جاءوا من اليونان بالمعنى الحديث للكلمة فالعالم الذي كان موجودًا في ذلك الزمن لم يكن مقسمًا وفق حدود الدول الحديثة، كما أن مناطق بحر إيجة والأناضول كانت تضم جماعات وثقافات متعددة.

لذلك يستخدم الباحثون عادة تعبيرات أكثر دقة، مثل منطقة بحر إيجة وشرق المتوسط، عند مناقشة أصول بعض الجماعات المرتبطة بالفلستيين كما أن الأدلة الأثرية تشير إلى أن السكان المحليين لم يختفوا ببساطة عند ظهور الثقافة الفلستية بل استمر وجود عناصر كنعانية ومحلية داخل المجتمع الجديد، وهو ما يشير إلى حدوث تفاعل واندماج بين مجموعات مختلفة ماذا تقول المصادر المصرية؟

تمنحنا المصادر المصرية واحدة من أقدم الإشارات إلى الجماعة التي يربطها الباحثون بالفلستيين.

وفي النقوش المرتبطة بحروب رمسيس الثالث، يظهر اسم بلست ضمن جماعات شعوب البحر وتصور النصوص المصرية مواجهة كبيرة مع هذه الجماعات، سواء في البحر أو على اليابسة، في وقت كانت فيه مصر تواجه تهديدات واسعة على حدودها لكن النصوص المصرية، مثل معظم النقوش الملكية في العالم القديم، لم تكن تقارير محايدة بالمعنى الحديث فقد كان من الطبيعي أن تُظهر الفرعون منتصرًا، وأن تصف أعداءه بوصفهم خطرًا هزمه الملك ولهذا لا يكفي أن نقرأ النقش وحده ونبني منه تاريخ الفلستيين كاملًا علينا أن نضعه إلى جانب الأدلة الأثرية وهنا تصبح الصورة أكثر إثارة الاسم الذي يظهر في النصوص المصرية، والآثار التي تظهر في جنوب بلاد الشام بعد تلك الفترة، والتغيرات التي طرأت على الثقافة المادية، كلها

تتقاطع لتشير إلى أن تحرك جماعات جديدة إلى الساحل كان جزءًا من التحولات الكبرى التي شهدتها المنطقة في نهاية العصر البرونزي لكنها لا تمنحنا، حتى الآن، قصة بسيطة تقول هؤلاء جاؤوا من المكان الفلاني، وكان عددهم كذا، ثم استقروا هنا الهوية التي تشكلت في بلاد الشام ربما يكون أهم ما يمكن قوله عن أصل الفلستيين هو أن أصل المجتمع لا يساوي بالضرورة أصل كل فرد فيه فالمجتمعات القديمة كانت تتغير باستمرار من خلال الهجرة والزواج والتجارة والحرب والاستقرار والاندماج ومن الممكن أن يكون المجتمع الفلستي قد نشأ من مجموعات وافدة اندمجت تدريجيًا مع سكان محليين، ثم أصبحت لها هوية مشتركة ومؤسسات ومدن ومعتقدات خاصة وبهذا المعنى، فإن سؤال «من أين جاء الفلستيون؟» لا يجب أن يقودنا فقط إلى البحث عن نقطة على الخريطة، بل إلى سؤال أوسع كيف تشكلت هوية الفلستيين نفسها؟

وهذا السؤال سيبقى معنا طوال رحلتنا في تاريخهم؛ لأن المدن التي ستظهر لاحقًا على الساحل لم تكن مجرد مستوطنات للوافدين، وإنما أصبحت مراكز لمجتمع تطور عبر قرون، وترك وراءه آثارًا تسمح لنا اليوم بإعادة بناء جانب كبير من حياته.

ومن هنا تبدأ قصة المدن الخمس، التي ستصبح القلب السياسي والاقتصادي والعسكري للعالم الفلستي.

المدن الخمس

حين استقر الفلستيون في الساحل الجنوبي لبلاد الشام، لم ينشئوا دولة مركزية موحدة بالمعنى الذي عرفته بعض الإمبراطوريات الكبرى في الشرق الأدنى القديم بل تشكل عالمهم السياسي حول مجموعة من المدن الكبرى التي أصبحت مراكز مستقلة نسبيًا، وعُرفت في المصادر اللاحقة باسم المدن الخمس وهي غزة، عسقلان، أشدود، عقرون، وجت.

ولم تكن أهمية هذه المدن في عددها فقط، بل في موقعها الجغرافي فقد امتدت على منطقة تجمع بين الساحل والسهول الداخلية، وجعلها ذلك قريبة من طرق التجارة والحركة العسكرية التي تربط مصر بجنوب بلاد الشام، وتصل الساحل بالمناطق الداخلية وكان لكل مدينة مجالها ومكانتها، وربما قدر من الاستقلال السياسي، لكن المدن الخمس كانت تشترك في هوية ثقافية وسياسية فلستية جعلتها تظهر في المصادر بوصفها جزءًا من عالم واحد.

غزة

كانت غزة من أهم المدن الواقعة في أقصى الجنوب، بالقرب من الطريق الساحلي الذي ربط مصر ببلاد الشام وقد منحها موقعها أهمية استراتيجية استثنائية؛ فهي تقع عند نقطة قريبة من

الحدود المصرية القديمة، وعلى مسار الطرق التي تحركت عبرها الجيوش والقوافل والتجار ولهذا لم تكن غزة مدينة فلستية فحسب، بل كانت أيضًا مدينة ذات أهمية إقليمية فمن يسيطر عليها يستطيع التأثير في الحركة بين مصر والساحل الشامي وتظهر غزة في عدد من الروايات القديمة بوصفها مدينة قوية ومحصنة، كما ارتبط اسمها بالصراعات بين الفلستيين والإسرائيليين، ثم دخلت لاحقًا في دائرة النفوذ المصري والآشوري وغيرها من القوى التي تنافست على السيطرة على المنطقة ومع ذلك، فإن غزة لم تكن مجرد مدينة حربية؛ فقد كان موقعها مناسبًا للتجارة والتبادل، وهو ما ساعد على استمرار أهميتها عبر فترات طويلة.

عسقلان

إلى الشمال من غزة ظهرت عسقلان، إحدى أبرز المدن الساحلية في المنطقة كان موقعها البحري يمنحها اتصالًا مباشرًا بالمتوسط، بينما جعلها موقعها الجغرافي جزءًا من شبكة التجارة التي ربطت الساحل بالمناطق الداخلية.

وتكشف الحفريات الأثرية في عسقلان عن مدينة كبيرة ذات تاريخ طويل سبق ظهور الفلستيين، ثم أصبحت خلال العصر الحديدي مركزًا مهمًا من مراكزهم وهذا الأمر يقدم لنا مثالًا واضحًا على الطريقة التي تشكلت بها المدن الفلستية

فالفلستيون لم يدخلوا أرضًا خالية، بل استقروا في منطقة كانت لها مدن وسكان وثقافات سابقة، ثم تشكلت هوية جديدة من خلال التفاعل بين الوافدين والسكان المحليين.

الموقع القديم مازال معروفاً ومحدداً أثرياً وتوجد فيه بقايا أسوار ومبانٍ وميناء وغيرها من الطبقات التي تمتد عبر فترات تاريخية مختلفة.

أشدود

كانت أشدود من أهم المراكز الفلستية، وتميزت بموقعها القريب من الساحل وبقدرتها على التحكم في طرق تربط البحر بالمناطق الداخلية وتظهر المدينة في المصادر القديمة في سياقات سياسية وعسكرية متعددة، كما تكشف آثارها عن مجتمع كان يتفاعل مع ثقافات مختلفة.

وقد أصبحت أشدود لاحقًا واحدة من المدن التي واجهت التوسع الآشوري، وهو ما يكشف أهمية موقعها؛ فالآشوريون لم يكونوا يهتمون بهذه المدن لمجرد كونها مدنًا صغيرة، بل لأنها كانت جزءًا من شبكة استراتيجية وتجارية مهمة على الساحل.

عقرون

أما عقرون، فقد أصبحت في العصر الحديدي أحد أهم المراكز الاقتصادية الفلستية وتكتسب المدينة أهمية خاصة من خلال

آثارها، ولا سيما المنشآت الصناعية التي ارتبطت بإنتاج زيت الزيتون على نطاق واسع وهنا تظهر لنا صورة مختلفة عن الفلستيين فهم لم يكونوا مجرد محاربين كما تصورهم بعض الروايات القديمة، بل كانوا مجتمعًا زراعيًا وتجاريًا وصناعيًا امتلك القدرة على تنظيم الإنتاج وتخزين المنتجات ومعالجتها وتبادلها.

وقد ساعد موقع عقرون في المناطق الزراعية على قيام اقتصاد يعتمد بدرجة كبيرة على الموارد الزراعية، ثم تطور مع مرور الوقت ليصبح جزءًا من اقتصاد إقليمي واسع.

ومن خلال عقرون نستطيع أن نرى كيف انتقل المجتمع الفلستي من مرحلة الاستقرار الأولى إلى بناء مراكز اقتصادية منظمة.

جت

أما جت، فهي من أكثر المدن الفلستية شهرة في الروايات القديمة، ويرتبط اسمها خصوصًا بشخصية جليات الجتي في الرواية التوراتية لكن أهمية جت لا تتوقف عند جليات.

فالحفريات الأثرية في موقع تل الصافي، الذي يرتبط على نطاق واسع بجت القديمة، كشفت عن مدينة كبيرة وقوية، تعرضت في مرحلة من مراحل تاريخها إلى دمار واسع ارتبط بالتوسع الآشوري وتشير الأدلة الأثرية إلى أن جت كانت في فترة من

الفترات مركزًا فلستيًا مهمًا، وربما كانت من أقوى مدن المنطقة قبل أن تتعرض للدمار وهذا يجعل قصة جت مثالًا واضحًا على التحولات التي مر بها العالم الفلستي مدينة قوية في مرحلة، ثم مدينة متضررة بفعل صراع إقليمي واسع، ثم تراجع دورها السياسي.

هل كانت المدن الخمس دولة واحدة؟ هنا يجب أن نكون حذرين.

ففكرة المدن الخمس لا تعني بالضرورة وجود دولة فلستية موحدة يحكمها ملك واحد من غزة إلى جت.

الأقرب إلى الأدلة هو وجود نظام من المدن والمراكز السياسية المستقلة أو شبه المستقلة، تجمعها عناصر ثقافية مشتركة، وقد تتعاون أحيانًا أو تدخل في منافسة أحيانًا أخرى وكان لكل مدينة حكامها ونخبها ومصالحها.

ولهذا فإن العلاقة بين المدن الخمس يمكن تشبيهها بشبكة من المراكز السياسية المتقاربة ثقافيًا، وليس بإمبراطورية مركزية واحدة وقد تصبح مدينة أكثر قوة من غيرها في فترة معينة، ثم تتغير موازين القوى نتيجة الحروب والتجارة والظروف الإقليمية.

بين البحر والداخل

كانت قوة المدن الفلستية مرتبطة بموقعها فهي لم تكن منعزلة عن البحر، ولم تكن منفصلة عن الداخل البحر فتح أمامها طرقًا للتجارة والاتصال بالمناطق المتوسطية، بينما وفرت السهول الزراعية والمناطق الداخلية الموارد الغذائية والأراضي اللازمة للاستقرار وهذا الموقع نفسه جعلها هدفًا للقوى الكبرى.

فمصر كانت تنظر إلى الساحل الجنوبي باعتباره جزءًا من المجال الحيوي لطرقها نحو بلاد الشام، والإسرائيليون كانوا يتنافسون مع الفلستيين على المناطق الداخلية، ثم جاءت آشور بقوة عسكرية وإمبراطورية أكبر بكثير من قدرة المدن المحلية على مقاومتها منفردة وبذلك أصبحت المدن الخمس، رغم قوتها، عالقة في قلب صراع أكبر منها.

لقد امتلك الفلستيون مدنًا قوية واقتصادًا نشطًا وثقافة مميزة، لكنهم كانوا يعيشون في منطقة لم تسمح لهم بالبقاء بعيدين عن القوى الكبرى ومع اتساع نفوذ الإمبراطوريات، بدأت مرحلة جديدة من تاريخهم، مرحلة ستختبر قدرتهم على الحفاظ على استقلالهم أمام القوى التي كانت تتوسع من مصر وبلاد الرافدين وقبل الوصول إلى تلك المرحلة، علينا أن نتوقف عند المجتمع الذي عاش داخل هذه المدن

المجتمع والحياة اليومية عند الفلستيين

خلف أسوار المدن الفلستية، وبعيدًا عن ساحات القتال التي حفظت الروايات القديمة أسماء بعض أبطالها، عاش مجتمع كامل يمارس حياته اليومية يزرع الأرض، ويربي الحيوانات، ويصنع الفخار، ويخزن الحبوب والزيت، ويتاجر مع المناطق القريبة والبعيدة، ويمارس طقوسه الدينية، ويقيم الاحتفالات والمناسبات الاجتماعية ولا نعرف تفاصيل كل جانب من جوانب حياتهم، فالمصادر المكتوبة عن المجتمع الفلستي محدودة مقارنة بما نعرفه عن المصريين أو الآشوريين لكن علم الآثار يمنحنا نافذة واسعة على حياتهم، من خلال البيوت والمخازن والأدوات والأواني وبقايا الطعام والمنشآت الصناعية والمقابر.

ومن خلال هذه الآثار نستطيع أن نرى مجتمعًا لم يكن منفصلًا عن محيطه، بل كان يتغير باستمرار نتيجة الاحتكاك بالسكان المحليين وبالمجتمعات الأخرى.

المدينة والبيت

كانت المدينة مركز الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وفي داخلها عاشت فئات مختلفة من السكان، من أصحاب النفوذ والنخب إلى الحرفيين والمزارعين والتجار والعمال وتكشف المواقع الأثرية عن بيوت ومنشآت ذات أحجام ووظائف

مختلفة، وهو ما يشير إلى وجود تفاوت اجتماعي واقتصادي بين السكان ولم تكن جميع البيوت متشابهة، كما لم يكن جميع السكان يعيشون المستوى نفسه من الرفاهية فوجود مبانٍ كبيرة ومنشآت تخزين وصناعات واسعة النطاق يدل على وجود فئات امتلكت موارد ونفوذًا أكبر من غيرها.

أما الحياة اليومية للعائلة العادية، فكانت مرتبطة بدرجة كبيرة بالزراعة وإنتاج الغذاء وتخزينه وكانت الحبوب والزيت والعنب ومنتجات الحيوانات من الموارد الأساسية التي اعتمد عليها سكان المنطقة.

الطعام

يقدم لنا علم الآثار بعض الأدلة المثيرة عن النظام الغذائي الفلستي فقد عُثر في المواقع الفلستية على بقايا حيوانات وأدوات طبخ وأوانٍ وأوعية كانت تستخدم في إعداد الطعام وتقديمه ومن خلال هذه الأدلة يمكن ملاحظة أن الغذاء لم يكن مطابقًا تمامًا لما كان شائعًا في المجتمعات الكنعانية المجاورة خلال الفترات الأولى من الاستقرار الفلستي.

وتظهر في بعض المواقع تغيرات في أنواع الحيوانات التي استُهلكت، كما تظهر دلائل على عادات غذائية ارتبطت بالمجتمعات القادمة من مناطق أخرى ومن أكثر الأمور التي لفتت انتباه علماء الآثار ارتفاع نسبة عظام الخنازير في بعض

المواقع الفلستية ولا سيما خلال المراحل المبكرة من وجودهم كما استفاد سكان المدن الساحلية من البحر فدخلت الأسماك والمحار والمواد البحرية في نظامهم الغذائي بينما وفرت المناطق الزراعية الحبوب و الزيتون و العنب و الماشية

لكن هذه الاختلافات لم تبقَ ثابتة فمع مرور الوقت، بدأ النظام الغذائي الفلستي يتقارب أكثر مع البيئة المحلية، وهو أمر طبيعي في مجتمع استقر لعدة أجيال في بلاد الشام وهذا التحول الغذائي يقدم مثالًا آخر على أن الهوية الثقافية ليست شيئًا ثابتًا، وإنما يمكن أن تتغير مع الاستقرار والتفاعل.

الزراعة والثروة

كانت الزراعة أساسًا مهمًا للاقتصاد فالمناطق المحيطة بالمدن الفلستية كانت غنية نسبيًا بالموارد الزراعية، وسمحت بإنتاج الحبوب والزيت والعنب وغيرها من المحاصيل وكان زيت الزيتون من أهم المنتجات الاقتصادية، وتقدم عقرون مثالًا واضحًا على حجم إنتاجه فقد كشفت الحفريات عن منشآت واسعة لإنتاج زيت الزيتون، تضم عددًا كبيرًا من المعاصر والمنشآت المرتبطة بالتصنيع والتخزين وهذا يعني أن الإنتاج لم يكن مقتصرًا على حاجة الأسرة، بل كان في بعض المراحل إنتاجًا اقتصاديًا واسع النطاق.

وقد أتاحت هذه المنتجات للمدن الفلستية الدخول في شبكات تبادل تجاري مع المناطق المجاورة.

الحرف والصناعة

لم تقتصر حياة الفلستيين على الزراعة فالفخار كان من أبرز صناعاتهم، وأصبح أحد أهم الأدلة التي يستخدمها علماء الآثار لدراسة ظهور المجتمع الفلستي وتطوره كما ظهرت صناعات مرتبطة بالمعادن، وصناعة الأدوات والأسلحة، إضافة إلى أعمال النسيج والجلود وغيرها من الحرف التي تحتاج إليها المدن والمجتمعات المستقرة.

وكان وجود الحرفيين المتخصصين دليلًا على تطور اقتصادي واجتماعي، لأن المدن الكبيرة تحتاج إلى أشخاص يتفرغون لصناعة الأدوات والملابس والأواني والأسلحة بدل أن يعتمد كل فرد على إنتاج كل احتياجاته بنفسه.

التجارة والاتصال

كان موقع الفلستيين بين مصر وبلاد الشام والبحر المتوسط عاملًا مهمًا في حياتهم الاقتصادية فالمدن الساحلية مثل عسقلان وغزة وأشدود كانت قادرة على الاستفادة من طرق البحر، بينما سمحت الطرق البرية بربط الساحل بالمناطق الداخلية ومن خلال هذه الشبكات وصلت إلى المدن الفلستية

منتجات وأفكار وأساليب فنية من مناطق مختلفة، وفي المقابل خرجت منها منتجات زراعية وصناعية.

وهذا يساعد على تفسير التنوع الثقافي الذي نراه في آثارهم فالفلستيون لم يعيشوا داخل حدود مغلقة، بل كانوا جزءًا من عالم تجاري وثقافي أوسع.

الأسرة والمجتمع

لا نملك صورة كاملة عن شكل الأسرة الفلستية أو تفاصيل العلاقات الاجتماعية داخلها، لأن الأدلة المكتوبة محدودة لكن وجود البيوت والمقابر والأدوات المنزلية ومجموعة واسعة من اللقى الأثرية يسمح لنا بإعادة بناء بعض جوانب الحياة الاجتماعية ومن المرجح أن الأسرة كانت وحدة أساسية في المجتمع، بينما كانت المدينة تنظم الحياة الاقتصادية والسياسية بصورة أوسع وكانت النخب الحاكمة أو أصحاب النفوذ يمتلكون قدرًا أكبر من الموارد، وهو أمر نراه في اختلاف حجم المباني والمنشآت وتوزيع الثروة ومثل بقية المجتمعات القديمة، لم يكن المجتمع الفلستي متساويًا بالكامل، بل كان يضم مستويات مختلفة من المكانة والثروة.

المرأة في المجتمع الفلستي

أشهر النساء الفلستيات دليلة سنذكر قصتها بالتفصيل لاحقاً لكن تظل حياة النساء من أصعب الجوانب التي يمكن إعادة بنائها، بسبب قلة النصوص التي تتحدث عنهن مباشرة لكن وجود النساء في الأدلة الأثرية يظهر من خلال المقابر والأدوات المنزلية والزخارف وبعض اللقى التي ارتبطت بالحياة الأسرية والطقوس ولا ينبغي أن نستنتج من قلة النصوص أن النساء لم يكن لهن دور مهم فمعظم المجتمعات القديمة تركت لنا مصادر كتبها رجال السلطة والكهنة والكتبة، بينما بقيت حياة غالبية الناس، رجالًا ونساءً، أقل ظهورًا في السجل المكتوب.

ولهذا يعتمد الباحثون في دراسة حياة النساء الفلستيات بدرجة كبيرة على علم الآثار.

ماذا تكشف المقابر؟

المقابر من أهم المصادر التي تساعدنا على فهم المجتمع فطريقة دفن الموتى، ونوع الأدوات التي توضع معهم، واختلاف القبور في الحجم والمحتويات، كلها يمكن أن تكشف عن جوانب من المعتقدات والفوارق الاجتماعية كما تسمح بقايا الهياكل العظمية بدراسة العمر والجنس وبعض الأمراض والإصابات

والأنماط الغذائية وهذه المعلومات تمنحنا صورة مختلفة تمامًا عن الفلستيين التي تظهر في الروايات العسكرية.

فنحن لا نرى هنا المحارب الفلستي فقط، بل نرى أطفالًا ونساءً ورجالًا ومزارعين وحرفيين وأشخاصًا عاشوا حياة عادية، ثم ماتوا ودُفنوا وفق طقوس وممارسات تعكس عالمهم الثقافي.

الدين والآلهة عند الفلستيين

داغون من أشهر الآلهة المرتبطة بالفلستيين وقد ورد اسمه في المصادر القديمة في ارتباط بعدد من المدن الفلستية، ومن أشهرها غزة وأشدود وترتبط عبادة داغون بمعبد في أشدود ظهر في الرواية التوراتية، حيث ترد قصة تمثال داغون وسقوطه أمام تابوت العهد.

تابوت العهد، بحسب الرواية التوراتية، لم يكن مجرد صندوق عادي، بل كان صندوقًا مقدسًا جدًا يمثل حضور إله إسرائيل وعهده مع بني إسرائيل.

كان مصنوعًا من خشب السنط ومغطى بالذهب، وله غطاء ذهبي فوقه يُعرف باسم غطاء التابوت، وفوق الغطاء تمثالان لكائنين مجنحين يُسميان الكروبيم. وكان يُحمل بواسطة عصوين مخصصتين لذلك، ولا يُفترض أن يلمسه الناس مباشرة والأهم من شكله هو ما كان يمثله

كان يحمل، بحسب الرواية، لوحي العهد اللذين نُسب تسليمهما إلى النبي موسى، ولذلك ارتبط بفكرة العهد بين الله وبني إسرائيل. وكان محفوظًا في أقدس موضع من خيمة الاجتماع، ثم أصبح لاحقًا مرتبطًا بالهيكل في القدس ولهذا كان له وزن ديني ورمزي هائل. وعندما خرج التابوت مع الجيش في بعض الروايات، لم يكن الإسرائيليون يتعاملون معه كقطعة أثاث يحملونها إلى المعركة، بل كرمز إلى وجود إلههم وحمايته وعهده بهم.

وعندما استولى الفلستيون على التابوت ووضعوه في معبد داجون، كانت الرواية الإسرائيلية تصوّر الأمر وكأن رمز إله إسرائيل دخل إلى بيت إله الفلستيين. ثم جاء سقوط تمثال داجون أمامه ليؤدي وظيفة رمزية واضحة في القصة إظهار تفوق إله إسرائيل على داجون.

هذه هي الرواية الدينية كما وردت في سفر صموئيل، وليست دليلًا أثريًا على أن التمثال سقط فعلًا. نحن نعرض القصة لأنها جزء من تصور الإسرائيليين لعلاقتهم بإلههم وبالفلستيين.

داجون وسقوط تمثاله أمام تابوت العهد

بحسب الرواية الواردة في سفر صموئيل الأول، تمكن الفلستيون من الاستيلاء على تابوت العهد بعد معركة مع

الإسرائيليين، ونقلوه إلى مدينة أشدود، ووضعوه داخل معبد الإله داجون إلى جانب تمثال الإله.

وفي صباح اليوم التالي، دخل أهل المعبد فوجدوا تمثال داجون ساقطًا على وجهه أمام تابوت العهد. فرفعوا التمثال وأعادوه إلى مكانه. وفي صباح اليوم التالي وجدوه ساقطًا مرة أخرى أمام التابوت، لكن هذه المرة كان رأسه وراحَتا يديه مقطوعة، ولم يبقَ منه في مكانه إلا جذعه.

وتتابع الرواية بذكر إصابة أهل أشدود بالمرض، ثم انتقال تابوت العهد بين عدد من المدن الفلستية، مع تكرار المصائب، إلى أن قرر الفلستيون إعادته إلى الإسرائيليين.

القصة هنا رواية دينية إسرائيلية تُقدّم سقوط داجون بوصفه علامة على تفوق إله إسرائيل على إله الفلستيين. ولا نستطيع التعامل مع سقوط التمثال كحادثة تاريخية مثبتة أثريًا؛ لكن القصة نفسها مهمة لأنها تكشف كيف صوّرت الرواية الإسرائيلية الصراع الديني بين الطرفين، وكيف كانت صورة الآلهة ومكانتها مرتبطة بالانتصار والهزيمة.

لكن يجب التمييز بين الرواية الدينية وبين الدليل التاريخي المباشر.

فوجود عبادة لداغون في المنطقة تؤكده الأدلة والنصوص، لكن تفاصيل القصة الواردة في الرواية التوراتية تنتمي إلى إطارها

الديني والأدبي الخاص، ولا يمكن التعامل معها كلها بوصفها وصفًا أثريًا لطقوس الفلستيين.

كما أن داغون لم يكن إلهًا فلستيًا حصريًا؛ فقد عُرفت عبادته في أجزاء أخرى من بلاد الشام قبل ظهور الفلستيين بوقت طويل في إيبلا وماري وأوغاريت وتوتول و كان يدعى دغن

وهذا أمر مهم، لأنه يوضح مرة أخرى أن الفلستيين لم يعيشوا في عالم ديني منفصل عن جيرانهم.

عشتروت ظهرت في البيئة الدينية للشرق الأدنى القديم بوصفها واحدة من الإلهات المهمة، وارتبطت في تقاليد مختلفة بالخصوبة والحب والحرب وتظهر آثار عبادتها في مناطق واسعة من بلاد الشام، ولذلك فإن وجودها في البيئة الفلستية لا يعني بالضرورة أن الفلستيين نقلوا عبادتها من مكان واحد محدد بل يمكن أن تكون عبادة عشتروت جزءًا من التداخل الديني الواسع الذي حدث بين المجتمعات الساحلية والمحلية وتكشف هذه النقطة عن طبيعة الدين في العالم القديم فالآلهة كانت تستطيع الانتقال بين المدن والشعوب، وقد تتغير صفاتها وأسماؤها ووظائفها بحسب المكان والزمان.

بعل زبوب يرتبط اسمه بمدينة عقرون، وقد حفظت لنا المصادر القديمة اسم هذا الإله بصورة واضحة وتأتي أهميته

من كونه مثالًا على وجود تقاليد دينية محلية مرتبطة بالمدن الفلستية ويظهر اسم الإله في الرواية التوراتية بصيغة بعل زبوب، في سياق الحديث عن عقرون.

لكن مرة أخرى، يجب أن نميز بين الاسم كما ورد في المصادر وبين الصورة التي يمكن أن نعيد بناءها تاريخيًا فالمعلومات المتوفرة عن عبادته وطقوسه محدودة، ولذلك لا يمكننا أن نملأ الفراغات بتفاصيل لا تؤيدها الأدلة.

المعابد ومراكز العبادة

كانت المعابد من أهم المؤسسات في المدينة القديمة ولم يكن المعبد مكانًا للعبادة فقط، بل كان في كثير من المجتمعات القديمة مرتبطًا بالاقتصاد والتخزين والإدارة والسلطة الاجتماعية وتكشف المواقع الفلستية عن منشآت دينية وأدلة على ممارسات طقسية، لكنها لا تمنحنا صورة موحدة لكل المدن وهذا أمر طبيعي؛ فكل مدينة كانت تمتلك تقاليدها ومؤسساتها الخاصة، حتى مع وجود آلهة مشتركة وقد تغير شكل هذه المؤسسات عبر الزمن مع تغير المجتمع نفسه.

الطقوس والقرابين

كان تقديم القرابين جزءًا أساسيًا من الدين في معظم مجتمعات الشرق الأدنى القديم، ومن المرجح أن الفلستيين مارسوا أنواعًا

مختلفة من الطقوس لتكريم آلهتهم وطلب الحماية والخصوبة والوفرة لم تكن العبادة مقتصرة على الدعاء و تقديم القرابين كما عرفت ممارسات حرق القرابين أو أجزاء منها في بعض السياقات إلى جانب أواني خاصة بالطقوس وتقديم السوائل مثل النبيذ والزيوت وإقامة الولائم ضمن الطقوس الدينية.

وتشير الأدلة الأثرية إلى وجود أوانٍ وأدوات ارتبطت بالممارسات الدينية، كما تظهر في بعض المواقع بقايا حيوانات يمكن أن تكون مرتبطة بالطقوس.

لكن يجب الحذر من تحويل كل بقايا حيوانية إلى «قربان».

فالحيوان الذي عُثر على عظامه داخل منشأة دينية قد يكون بالفعل جزءًا من طقس، لكنه قد يكون أيضًا بقايا وجبة أو نشاط آخر ولذلك يعتمد علماء الآثار على السياق الكامل للعثور حتى يستطيعوا تحديد وظيفة المكان أو القطعة.

الدين والهوية

هل كان الدين هو العامل الذي حافظ على الهوية الفلستية؟ ربما كان له دور، لكن ليس وحده فالهوية الاجتماعية تتشكل من اللغة والعادات والمأكل والملبس والطقوس والاقتصاد والسياسة والذاكرة المشتركة، إضافة إلى الشعور بالانتماء إلى مدينة أو

جماعة ولهذا فإن دراسة الدين تساعدنا على فهم الهوية، لكنها لا تكفي وحدها لتحديد أصل الفلستيين.

واللافت أن بعض العناصر الدينية التي نراها عند الفلستيين تشترك مع تقاليد أقدم في بلاد الشام، بينما تظهر عناصر أخرى ذات صلات بالثقافات المتوسطية أي ثقافات بحر إيجة وشرق المتوسط وهذا يعكس الطبيعة المركبة للمجتمع الفلستي نفسه.

وهذا ما يجعل الدين واحدًا من أفضل المجالات لدراسة عملية الاندماج الثقافي فمع مرور الزمن، أصبحت الحدود بين العناصر الوافدة والمحلية أقل وضوحًا، وظهر مجتمع فلستي يحمل ثقافة خاصة، لكنها لم تكن منفصلة عن الثقافة الأوسع لبلاد الشام.

الدين في مواجهة الروايات القديمة

تعطينا الروايات القديمة أحيانًا صورة شديدة الوضوح عن آلهة الفلستيين، لكنها في الوقت نفسه قد تكون مكتوبة من وجهة نظر خصومهم.

وهنا يجب أن نتذكر أن الفلستيين لم يتركوا لنا كمية كبيرة من الأدبيات الدينية التي تشرح معتقداتهم بأنفسهم.

لذلك علينا أن نقرأ النصوص المصرية والتوراتية وغيرها بحذر، وأن نقارنها دائمًا بالأدلة الأثرية والنتيجة ليست أن الروايات القديمة بلا قيمة، بل العكس؛ إنها مصادر مهمة جدًا،

لكنها تحتاج إلى قراءة نقدية فحين تخبرنا رواية عن معبد أو إله أو مدينة، نسأل هل لدينا دليل أثري يدعم ذلك؟

وهل يتوافق مع الفتر ة الزمنية التي تتحدث عنها الرواية؟

وهل يمكن أن تكون الرواية قد صيغت أو أعيدت صياغتها بعد الحدث بزمن طويل؟

هذه الأسئلة سترافقنا في بقية الكتاب، لأن تاريخ الفلستيين لا يمكن فهمه من مصدر واحد.

وفي النهاية، تكشف لنا ديانتهم عن مجتمع متنوع تشكل بين البحر والساحل والداخل، حمل معه بعض التقاليد من عالم أقدم، ثم دخل في تفاعل عميق مع البيئة الجديدة.

الفخار الفلستي المميز

عندما ظهرت الأشكال المبكرة من الفخار المرتبط بالفلستيين، لاحظ علماء الآثار اختلافها عن كثير من التقاليد المحلية السابقة فبعض الأواني تحمل زخارف وأشكالًا ترتبط بتقاليد بحر إيجة وشرق المتوسط، ومن بينها رسوم هندسية وأشكال نباتية وحيوانية، إضافة إلى أنماط معينة من الأوعية والأواني المزخرفة وأصبح هذا الفخار يعرف في الدراسات الأثرية باسم الفخار الفلستي لكن أهميته لا تكمن في جماله فقط.

فالفخار مادة ممتازة للتأريخ الأثري، لأن الأشكال والزخارف تتغير مع مرور الزمن. وبمقارنة الطبقات الأثرية في المواقع المختلفة، يستطيع الباحثون تتبع انتشار بعض الأنماط والتغيرات التي طرأت عليها وهكذا أصبح الفخار أحد المفاتيح الأساسية لفهم بداية المجتمع الفلستي.

مزيج بين الجديد والقديم

من المثير للاهتمام أن الفخار الفلستي نفسه تغير مع مرور الوقت في المراحل الأولى تظهر التأثيرات الخارجية بصورة أكثر وضوحًا، لكن الأشكال المحلية تصبح أكثر حضورًا تدريجيًا وهذا التغير يعكس ما حدث للمجتمع نفسه فالجيل الأول من الوافدين ربما حافظ على بعض التقاليد التي حملها معه، بينما بدأت الأجيال التالية تتأثر بالبيئة المحلية. وبعد عدة أجيال، لم يعد من الممكن الفصل بسهولة بين الوافد والمحلي وهكذا أصبح الفخار سجلًا بصريًا لعملية الاندماج الثقافي.

العمارة

لم تكن العمارة الفلستية نسخة مطابقة لما كان موجودًا في بحر إيجة، كما لم تكن استمرارًا بسيطًا للعمارة الكنعانية فقد ظهرت بعض الخصائص المميزة في المباني والمنشآت، لكن المدن الفلستية كانت تتطور ضمن البيئة العمرانية المحلية نفسها.

ربما لم يكن السؤال الصحيح هو هل كانوا من هنا أم من هناك؟

بل كيف اجتمعت جماعات مختلفة لتكوين المجتمع الذي أصبح معروفًا باسم الفلستيين؟

وهنا تكمن قيمة الآثار؛ فهي لا تعطينا دائمًا جوابًا مباشرًا، لكنها تسمح لنا برؤية عملية التغير نفسها.

ومع نمو المدن وتوسع الاقتصاد، احتاج المجتمع الفلستي إلى حماية موارده وطرق تجارته ومدنه وكانت الحرب جزءًا أساسيًا من الحياة السياسية في المنطقة.

الحديد والسلاح والحرب

ارتبط اسم الفلستيين في الروايات القديمة بالحرب أكثر من أي جانب آخر تقريبًا فقد ظهروا بوصفهم خصومًا أقوياء للمجموعات الإسرائيلية والكنعانية، وخاضوا صراعات طويلة للسيطرة على المدن والطرق والمناطق الزراعية لكن الحرب لم تكن ظاهرة فلستية خاصة فالعالم الذي عاش فيه الفلستيون كان عالمًا تتنافس فيه المدن والممالك على الأرض والمياه وطرق التجارة والنفوذ، وكانت الأسلحة والجيوش جزءًا طبيعيًا من الحياة السياسية.

ومع ذلك، امتلك الفلستيون قوة عسكرية جعلتهم خلال مراحل معينة من تاريخهم طرفًا لا يمكن تجاهله.

الحديد بين الرواية والواقع

من أشهر الأفكار المرتبطة بالفلستيين أنهم امتلكوا معرفة متقدمة بالحديد، وأنهم منعوا الإسرائيليين من امتلاك الحدّادين أو صناعة الأدوات الحديدية وتظهر هذه الصورة بوضوح في الرواية التوراتية، التي تتحدث عن ندرة الحدادين في أرض إسرائيل، وعن اعتماد السكان على الفلستيين في شحذ الأدوات. لكن تحويل هذه الرواية إلى حقيقة تاريخية بسيطة سيكون خطأ فانتشار الحديد في الشرق الأدنى لم يكن حدثًا مفاجئًا بدأ عند شعب واحد، بل كان جزءًا من تحول تقني واسع استغرق وقتًا طويلًا كما أن استخدام الحديد لا يعني بالضرورة أن مجتمعًا ما امتلك احتكارًا كاملًا لتقنيته.

ومع ذلك، فإن الرواية قد تعكس شيئًا من واقع العصر الذي أصبح فيه العمل بالحديد أكثر أهمية، وأصبحت القدرة على إنتاج الأدوات والأسلحة المعدنية عنصرًا من عناصر القوة.

نهاية العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي

ظهر الفلستيون في فترة شهدت تحولًا كبيرًا من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي وكان هذا التحول مصحوبًا باضطرابات سياسية واقتصادية، وسقوط أو ضعف عدد من الممالك والمدن الكبرى وفي مثل هذه الظروف، تصبح

التكنولوجيا العسكرية أكثر أهمية فالجيوش تحتاج إلى أسلحة وأدوات متينة، والمجتمعات التي تستطيع تنظيم إنتاجها وتوفير المواد الخام تمتلك ميزة على منافسيها لكن يجب ألا نتصور أن ظهور الحديد أدى وحده إلى سقوط العصر البرونزي فالأسباب كانت متعددة، وشملت التغيرات السياسية والاقتصادية والهجرات واضطراب التجارة والمناخ وغيرها من العوامل التي ما زال الباحثون يناقشون وزن كل منها.

السلاح الفلستي

استخدم الفلستيون مجموعة متنوعة من الأسلحة التي كانت شائعة في المنطقة خلال العصر الحديدي ومن بينها السيوف والرماح والخناجر والأقواس والدروع، إلى جانب الأدوات الدفاعية والتحصينات وكانت الجيوش تعتمد على المشاة بدرجة كبيرة، بينما كانت العربات الحربية موجودة في بعض الجيوش الإقليمية، بحسب الفترة والظروف.

ولا ينبغي أن نبحث عن سلاح فلستي واحد يميزهم عن جميع جيرانهم فالحرب في الشرق الأدنى القديم كانت مجالًا للتبادل أيضًا. فالأسلحة والتقنيات يمكن أن تنتقل بين الجيوش، ويستطيع المحارب أن يستخدم سلاحًا صُنع في منطقة مختلفة عن المنطقة التي يعيش فيها.

شمشون والفلستيون

أما شمشون، فيظهر في الروايات بوصفه شخصية مرتبطة بالصراع مع الفلستيين وقصته ليست مجرد قصة محارب قوي، بل تتضمن مجموعة من الصراعات والانتقامات والتحالفات والعلاقات الشخصية لكن مرة أخرى، لا يمكننا التعامل مع كل تفاصيل القصة باعتبارها سجلًا تاريخيًا مباشرًا الأهمية التاريخية للقصة تكمن أيضًا في أنها تعكس الذاكرة التي تشكلت حول الصراع بين الجماعات الإسرائيلية والفلستية، وتُظهر كيف أصبح الفلستيون جزءًا أساسيًا من الرواية السياسية والدينية عن تلك المرحلة.

شمشون والثعالب التي أحرقت حقول الفلستيين

بعد خلاف وقع بين شمشون والفلستيين، لجأ إلى وسيلة غريبة للانتقام بحسب الرواية الكتابية. فقد أمسك عددًا كبيرًا من الثعالب، وربط كل ثعلبين معًا، ووضع مشعلًا بين ذنبيهما، ثم أطلقها في حقول الفلستيين. اندفعت الحيوانات بين الحقول، فاشتعلت النار في المحاصيل والكروم والزيتون، وهي موارد أساسية للحياة والاقتصاد في المنطقة. ولم يكن الانتقام هذه المرة موجّهًا إلى مقاتلين في ساحة معركة، بل إلى مصدر رزق المجتمع نفسه. وعندما عرف الفلستيون سبب ما حدث، ردوا بانتقام آخر، فأحرقوا المرأة التي كانت مرتبطة بشمشون وبيت

أبيها. وهكذا تحولت خصومة شخصية إلى سلسلة من أعمال الانتقام المتبادل، تكشف الرواية من خلالها عن طبيعة الصراع العنيف بين الطرفين.

شمشون وأبواب غزة

وفي حادثة أخرى، دخل شمشون مدينة غزة، إحدى أهم المدن الفلستية، وبات فيها. وعندما علم أهل المدينة بوجوده، أغلقوا أبوابها وانتظروا حتى الصباح ظنًا منهم أنهم سيتمكنون من القبض عليه. لكن شمشون نهض في منتصف الليل، واتجه إلى بوابة المدينة، واقتلع الأبواب والقائمتين والعارضة، ثم حملها بعيدًا. وتمنح هذه القصة، بصرف النظر عن إمكانية إثبات تفاصيلها تاريخيًا، صورة درامية عن أهمية بوابات المدن القديمة؛ فهي لم تكن مجرد مداخل، بل كانت جزءًا من دفاع المدينة ورمزًا لقوتها. وفي الرواية، يتحول اقتلاع بوابة غزة إلى إهانة رمزية للمدينة التي ظنت أن أبوابها قادرة على احتجازه.

شمشون ودليلة

تروي الرواية التوراتية قصة شمشون، أحد القضاة الذين ارتبط اسمهم بالصراع بين الإسرائيليين والفلستيين. وتقدمه الرواية رجلًا شديد القوة، ارتبطت قوته بنذر ديني منذ ولادته، وكان

شعر رأسه جزءًا أساسيًا من هذا النذر؛ ولذلك لم يكن ينبغي أن يُقص ومع استمرار الصراع بين شمشون والفلستيين، دخلت دليلة إلى قصته. كانت من وادي سورِق، وأراد زعماء الفلستيين أن يعرفوا سر قوة شمشون، فوعدوها بمكافأة إذا تمكنت من اكتشافه سألت دليلة شمشون الذي أحبها عن مصدر قوته، لكنه لم يخبرها بالحقيقة في البداية، بل أعطاها إجابات مضللة. وفي كل مرة كانت تختبر ما يقوله، ثم تكتشف أن الأمر ليس صحيحًا. لكنها لم تتوقف عن سؤاله، وظلت تضغط عليه حتى كشف لها أخيرًا أن قوته مرتبطة بنذره، وأن شعر رأسه لم يُقص منذ ولادته عندما نام شمشون، استدعت دليلة من يحلق شعره، ثم نادت الفلستيين. وعندما استيقظ، وجد أن قوته قد فارقته، فأمسك به الفلستيون وأخذوه أسيرًا. وتروي القصة أنهم فقؤوا عينيه واقتادوه إلى غزة، حيث أصبح أسيرًا لديهم.

ومع مرور الوقت، بدأ شعر شمشون ينمو من جديد وفي إحدى المناسبات، جمع الفلستيون عددًا كبيرًا من الناس للاحتفال والسخرية من شمشون، وأحضروه إلى المكان الذي كانوا يجتمعون فيه. وهناك طلب شمشون من الفتى الذي يقوده أن يتركه ليستند إلى أعمدة البناء ثم دعا إلهه أن يعيد إليه قوته، ووضع يديه على العمودين الرئيسيين اللذين كان يستند إليهما، ودفعهما بكل قوته تنهار البنية، ويسقط المكان على شمشون وعلى من كانوا فيه. وهكذا تنتهي القصة بموت شمشون، لكن

الرواية تقول إنه قتل في موته من الفلستيين عددًا كبيرًا يفوق ما قتل في حياته.

شمشون وزواج تمْنة واللغز

بحسب الرواية الواردة في سفر القضاة، نزل شمشون إلى تمْنة، وهي مدينة في منطقة التماس بين الإسرائيليين والفلستيين، وهناك رأى امرأة فلستية وأراد الزواج منها. وأقيمت بمناسبة الزواج وليمة حضرها عدد من الشبان الفلستيين، وهناك طرح شمشون عليهم لغزًا، واشترط أن يمنحهم ثلاثين ثوبًا وثلاثين حلة إذا تمكنوا من معرفة حله خلال سبعة أيام، وإلا فعليهم أن يقدموا له مثلها. كان اللغز مرتبطًا بحادثة سابقة وقعت له عندما قتل أسدًا، ثم عاد بعد فترة فوجد في جسده سربًا من النحل وعسلًا و الأغرب أنه أخذ من العسل وأكل منه و أعطى والديه منه لكنه لم يخبرهما عن مصدره، فصاغ من ذلك لغزه «من الآكل خرج أكل، ومن الجافي خرجت حلاوة» بحسب النص. عجز الشبان عن حل اللغز، فلجؤوا إلى زوجته وهددوها لإجبار شمشون على كشف الإجابة لها. وبعد إلحاحها أخبرها بالسر، فنقلته إلى الشبان، الذين أعلنوا الحل في اليوم السابع الذي كان ماذا أحلى من العسل؟ وماذا أقوى من الأسد؟. أدرك شمشون أنهم عرفوا اللغز من خلال زوجته،

فغضب بشدة، واندلعت من جديد سلسلة من الانتقامات بينه وبين الفلستيين.

شمشون ورجال أشقلون الثلاثون

بعد أن عرف شمشون أن الشبان الفلستيين قد استخرجوا حل لغزه من زوجته، غضب ونزل إلى أشقلون، إحدى المدن الفلستية الكبرى، بحسب الرواية الكتابية. وهناك قتل ثلاثين رجلًا، وأخذ ملابسهم وأعطاها للشبان الذين ربحوا الرهان، ثم عاد إلى بيت أبيه غاضبًا. وتظهر هذه الحادثة كيف تحولت مسألة بدأت كرهان في وليمة زواج إلى مواجهة عنيفة، ثم إلى دائرة جديدة من الانتقام بين شمشون والفلستيين. كما أن اختيار أشقلون مكانًا للانتقام ليس تفصيلًا عابرًا؛ فهي واحدة من المدن الفلستية الكبرى، ولذلك ترتبط القصة مباشرة بالمجال الحضري والسياسي للفلستيين، لا بمجرد مواجهة فردية بعيدة عن مدنهم.

شمشون وفك الحمار وألف رجل فلستي

وفي حادثة أخرى، حاول الفلستيون القبض على شمشون بعدما أصبح مصدرًا متكررًا للصراع معهم. وعندما خاف رجال يهوذا من عواقب وجوده بينهم، قاموا بتقييده وتسليمه إلى الفلستيين، معتقدين أن تسليمه سيُنهي المشكلة. لكن عندما وصل شمشون

إلى مكان وجود الفلستيين، انقطعت القيود التي كانت توثقه، ووجد أمامه فك حمار حديثًا، فأخذه واستخدمه سلاحًا في القتال. وتقول الرواية إنه واجه به ألف رجل فلستي وانتصر عليهم، ثم ألقى الفك جانبًا بعد انتهاء المعركة. وتبقى هذه القصة، مثل غيرها من قصص شمشون، جزءًا من الرواية الكتابية التي تصوره بطلًا ذا قوة استثنائية، ولذلك ينبغي عرضها بوصفها رواية دينية قديمة، لا باعتبار أعداد القتلى أو تفاصيل المعركة وقائع يمكن إثباتها أثريًا.

بين الرواية والتاريخ

هذه القصص جزء من سفر القضاة، ولذلك ينبغي أن تُقدَّم بوصفها روايات دينية وأدبية قديمة عن فترة الصراع بين الإسرائيليين والفلستيين، لا بوصفها وقائع تاريخية يمكن إثبات جميع تفاصيلها أثريًا.

هل كان هناك تعايش؟

نعم، ومن المرجح أن التعايش كان جزءًا طبيعيًا من الحياة اليومية فلا يمكن أن تستمر مدن وممالك متجاورة لقرون من دون وجود قدر من الاتصال كان التجار يعبرون المناطق، والسلع تنتقل بين المدن، والحرف والأفكار تنتشر، والسكان يتحركون نتيجة الزواج أو العمل أو الحرب أو الهجرة ولهذا

فإن وجود صراع سياسي لا يعني أن كل فرد فلستي كان عدوًا لكل فرد إسرائيلي أو كنعاني.

كان الصراع في كثير من الأحيان صراعًا على السلطة والأرض والموارد، بينما تستمر الحياة اليومية بطرق أكثر تعقيدًا.

الحرب والاقتصاد

كان الاقتصاد والحرب مرتبطين ارتباطًا وثيقًا فالسيطرة على الأراضي الزراعية تعني توفير الغذاء للمدن والجيوش.

والسيطرة على الطرق تعني التحكم في التجارة.

والسيطرة على الموانئ تعني امتلاك القدرة على الاتصال بالعالم الخارجي.

ولهذا لم تكن الحروب الفلستية مجرد نزاعات شخصية بين ملوك، بل كانت جزءًا من صراع أوسع على الموارد والنفوذ. وهذا يفسر جزئيًا استمرار الصراع بينهم وبين الممالك الإسرائيلية والكنعانية.

الفلستيون والإسرائيليون صراع على الحدود

كان الفلستيون يسيطرون على عدد من المدن الساحلية والمناطق المحيطة بها، بينما كانت الجماعات والممالك الإسرائيلية تتوسع في المناطق الداخلية وبين الطرفين كانت

هناك مناطق حدودية لم تكن ثابتة دائمًا فتارة تتقدم قوة، وتارة تتراجع الأخرى وتذكر الروايات القديمة سلسلة طويلة من المواجهات بين الطرفين، من بينها معارك ارتبطت بشخصيات مثل شاول وداود وشمشون.

ولا يمكن إثبات كل معركة بصورة مستقلة، لكن وجود صراع طويل بين الفلستيين والجماعات الإسرائيلية يتوافق بصورة عامة مع طبيعة المشهد السياسي في المنطقة خلال العصر الحديدي.

ومن خلال هذا التوازن بين الاقتصاد والحرب يمكن فهم سبب قدرتهم على الاستمرار لعدة قرون لكن وجود قوة عسكرية لا يعني بالضرورة وجود دولة موحدة فالمدن الخمس كانت تمتلك مصالحها الخاصة، وقد تتعاون أحيانًا وتتنافس أحيانًا أخرى.

وهذا سيصبح أكثر أهمية عندما تبدأ القوى الإمبراطورية الكبرى بالتدخل في بلاد الشام فما يستطيع خمس مدن متنافسة أن تفعله ضد جيرانها المحليين قد يصبح مختلفًا تمامًا عندما تواجه جيشًا إمبراطوريًا منظمًا يأتي من بلاد الرافدين.

الفلستيون وجيرانهم

وكان أقرب جيرانهم هم سكان بلاد الشام المحليون، ثم الممالك والمجموعات الإسرائيلية التي أخذت تتشكل في المناطق الداخلية، إضافة إلى مصر التي بقي نفوذها حاضرًا في جنوب بلاد الشام ولهذا فإن تاريخ الفلستيين لا يمكن فهمه من خلال الحروب وحدها، بل من خلال شبكة واسعة من التبادل والصراع والتعايش والتأثير المتبادل.

الفلستيون والكنعانيون

عندما استقر الفلستيون في الساحل الجنوبي، لم يجدوا أرضًا خالية كانت المنطقة مأهولة منذ قرون طويلة، وكانت المدن الساحلية والداخلية جزءًا من عالم كنعاني واسع ذي تقاليد سياسية ودينية واقتصادية راسخة.

ولهذا لم يكن ظهور الفلستيين بداية التاريخ في تلك المنطقة، بل كان بداية مرحلة جديدة في تاريخها.

وهذا يعني أن العلاقة لم تكن مجرد مواجهة بين شعبين منفصلين لقد حدث تفاعل ثقافي.

فالوافدون احتاجوا إلى الأرض والموارد والأسواق، والسكان المحليون عاشوا إلى جانب مجتمع جديد يحمل تقاليد مختلفة. ومع مرور الزمن، حدثت عمليات تبادل وزواج واندماج وتبنٍّ

للعادات، حتى أصبح من الصعب فصل كل عنصر ثقافي عن مصدره الأول وهذه العملية هي التي ساعدت على تشكيل المجتمع الفلستي الذي نعرفه في العصر الحديدي.

التجارة بدل الحرب

كانت التجارة تفرض نوعًا من التواصل حتى بين المجتمعات المتنافسة فقد يحتاج مجتمع إلى الحبوب من جيرانه، ويحتاج آخر إلى الزيت أو النبيذ أو المنتجات الحرفية، ويمكن للسلع أن تنتقل عبر الحدود حتى عندما تكون العلاقات السياسية متوترة.

وهذا يفسر وجود منتجات وأساليب فنية أجنبية في المواقع الفلستية، كما يفسر ظهور عناصر فلستية خارج مراكزهم الأساسية.

الفلستيون والإسرائيليون

إذا كان هناك شعب ارتبط اسمه بالفلستيين في الروايات القديمة أكثر من غيره، فهو الجماعات الإسرائيلية لكن العلاقة لم تكن مجرد حرب متواصلة فالحدود بين المجموعات القديمة لم تكن دائمًا حدودًا ثابتة كما نعرفها اليوم، وكانت هناك مناطق تماس يمكن أن يحدث فيها القتال أو التجارة أو التبادل أو التداخل السكاني ومع ذلك، كان الصراع على الأرض والنفوذ حقيقيًا.

فالفلستيون امتلكوا مراكز قوية في الساحل والسهول، بينما ظهرت الممالك الإسرائيلية لاحقًا في المناطق الداخلية وكانت السيطرة على الممرات والطرق الزراعية والمناطق الحدودية ذات أهمية كبيرة للطرفين.

شاول والفلستيون

تضع الروايات التوراتية الملك شاول في مرحلة مهمة من الصراع مع الفلستيين وتصف عددًا من المعارك والتحركات العسكرية التي تظهر فيها القوة الفلستية بوصفها تهديدًا للمملكة الناشئة وبغض النظر عن التفاصيل التي يصعب إثباتها أثريًا، فإن وجود صراع بين الجماعات الإسرائيلية والفلستية في هذه الفترة يتوافق مع طبيعة الوضع السياسي في جنوب بلاد الشام فالمنطقة كانت تشهد ظهور كيانات سياسية جديدة، وكان لكل منها مصالحه في الأرض والموارد والطرق التجارية.

يوناثان وحامل سلاحه في معسكر الفلستيين

يوناثان، ابن شاول، كان موجودًا مع الإسرائيليين في منطقة جبعة، وكان للفلستيين موقع عسكري قريب منهم. وفي يوم من الأيام قال يوناثان لحامل سلاحه: «تعال نعبر إلى مركز أولئك الغلف»، ثم قرر ألا يخبر أباه بما ينوي فعله.

كان معه رجل واحد فقط، بينما كان موقع الفلستيين في مكان مرتفع بين ممرات صخرية. وقال يوناثان لحامل سلاحه إنهما إذا ظهرا للفلستيين وقالوا لهما قفوا حتى نأتي إليكم، فسوف يبقيان مكانهما، أما إذا قالوا اصعدوا إلينا، فسوف يعتبران ذلك علامة على أن الله قد سلّمهم إلى أيديهما.

ظهر يوناثان وحامل سلاحه أمام الحامية الفلستية، فرآهما الجنود وقالوا لهما ما معناه اصعدا إلينا نريكما شيئًا. فاعتبر يوناثان ذلك العلامة التي انتظرها.

تسلق يوناثان الصخور باتجاه موقع الفلستيين، وكان حامل سلاحه يتبعه. وما إن وصلا إليهم حتى بدأ يوناثان بالهجوم، وتمكن هو وحامل سلاحه من قتل عدد من الرجال في مساحة صغيرة. ثم انتشر الاضطراب في معسكر الفلستيين، وبدأت الحامية والجيش كله في الارتباك، حتى إن الرواية تقول إن الأرض نفسها ارتجفت، وتحول ما بدأه رجلان إلى اضطراب واسع في صفوف الجيش الفلستي.

وعندما رأى الإسرائيليون ما يحدث، اندفعوا هم أيضًا إلى القتال، وانتهى الأمر بهزيمة الفلستيين في ذلك اليوم.

شاول في جلبوع ونهاية الملك

لم يكن الصراع بين الفلستيين والإسرائيليين سلسلة انتصارات إسرائيلية؛ فالرواية تحفظ لنا أيضًا واحدة من أكثر لحظاته قسوة. في معركة جبل جلبوع، اشتبكت قوات شاول مع الفلستيين، وانتهت المعركة بهزيمة الإسرائيليين ومقتل عدد من أبناء شاول وهم يوناثان وأبي ناداب وملكي شوع، ثم أصيب شاول نفسه إصابة بالغة. وعندما أدرك أن المعركة انتهت وأنه سيقع في أيدي أعدائه، قال لحامل سلاحه (استل سيفك و اطعنّي به لئلا يأتي هؤلاء الغلف و يطعنوني و يقبحوني) لكن حامل السلاح رفض عندها أخذ شاول السيف وسقط عليه و بحسب الرواية عندما رأى حامل السلاح أن شاول قد مات سقط هو أيضاً على سيفه و مات معه انتهت حياته هناك بحسب الرواية. وفي رواية أخرى يروى فيها رجل عماليق أنه هو الذي قتل شاول بناء على طلبه وبعد ذلك وصل الفلستيون إلى المكان، وعثروا على جثمان شاول وأبنائه، فنقلوا جسده وعلّقوه على سور بيت شان، في مشهد كان يحمل معنى الانتصار والإذلال في عالم الحروب القديمة. لكن رجالًا من يابيش جلعاد خاطروا بحياتهم، وساروا ليلًا، وأنزلوا الأجساد وأعادوها لدفنها. وهكذا أصبحت نهاية شاول واحدة من أكثر اللحظات ارتباطًا بالصراع الفلستي الإسرائيلي.

داود والتحول في ميزان القوى

ترتبط مرحلة داود في الروايات القديمة بتحول مهم في العلاقة مع الفلستيين وتظهر قصص المواجهات بين داود والفلستيين، ثم مراحل لاحقة من التوسع السياسي للمملكة التي ارتبطت به.

لكن علينا هنا أن نميز بين الصورة الأدبية التي قدمتها الروايات وبين ما يمكن إثباته بصورة مستقلة.

فشخصيات مثل داود معروفة أساسًا من المصادر الكتابية، بينما توجد أدلة خارجية مهمة على وجود مملكة يهوذا في الفترات اللاحقة، لكن إعادة بناء حجم المملكة وقوتها في كل مرحلة من مراحلها الأولى لا تزال موضوعًا للنقاش بين الباحثين.

ولهذا لا ينبغي أن نحول الرواية إلى خريطة سياسية مؤكدة دون مقارنة الأدلة.

جليات (جالوت) المحارب الذي أصبح رمزًا

من أشهر الشخصيات الفلستية في الذاكرة القديمة جليات الجتي وتضعه الرواية في مواجهة داود في قصة أصبحت من أشهر قصص الصراع بين الفلستيين والإسرائيليين.

الرواية التوراتية في سفر صموئيل الأول

خرج الفلستيون للقتال ضد الإسرائيليين، وجمعوا جيشهم في منطقة أفِس دَمّيم، بينما نزل الجيش الإسرائيلي في الجهة المقابلة قرب وادي البطم. واصطف الجيشان استعدادًا للمعركة، لكن القتال لم يبدأ؛ إذ خرج من معسكر الفلستيين رجل ضخم الجثة يُدعى جالوت الجتي، وكان محاربًا مدججًا بالسلاح. كان يحمل خوذة نحاسية ودرعًا يغطي جسده، ويحمل رمحًا ضخمًا، وكان حامل ترسه يسير أمامه.

وقف جالوت أمام صفوف الإسرائيليين، وأخذ يتحدى جيشهم قائلًا لهم أن يختاروا رجلًا يخرج لمقاتلته. فإذا استطاع الإسرائيلي أن يقتله أصبح الفلستيون عبيدًا لهم، وإذا انتصر جالوت أصبح الإسرائيليون عبيدًا للفلستيين. وكان جالوت يخرج صباحًا ومساءً ويتحدى الإسرائيليين أربعين يومًا، وكان شاول وجميع الإسرائيليين يخافون منه.

في تلك الفترة كان داود قد عاد إلى بيت أبيه، بعد أن كان يذهب إلى معسكر شاول ويعود منه، وكان داود أصغر أبناء يسّى. وكان إخوته الثلاثة الأكبر سنًا قد التحقوا بجيش شاول. وفي أحد الأيام أرسل يسّى داود ليطمئن على إخوته ويحمل لهم بعض الطعام، ويعرف أخبار الجيش.

وصل داود إلى المعسكر في الوقت الذي كان فيه الجيش الإسرائيلي يخرج إلى ساحة القتال، وسمع جالوت وهو يكرر

تحديه. فاستغرب داود من أن يترك الإسرائيليون هذا الرجل يتحدى جيشهم، وسأل عن المكافأة التي سيحصل عليها الرجل الذي يقتل جالوت، كما سأل عن مصير الرجل الذي يهين جيش إسرائيل.

وصل كلام داود إلى شاول، فأُحضر إليه. وقال داود للملك إنه مستعد لمواجهة جالوت، لكن شاول حاول ثنيه، قائلًا إن داود لا يزال فتى، بينما جالوت محارب منذ شبابه. عندها أخبره داود أنه كان يرعى غنم أبيه، وأنه سبق أن واجه أسدًا ودبًا عندما هاجما القطيع، وأنه أمسك بهما وقتلهما، وقال إنه سيواجه هذا الفلستي بالطريقة نفسها لأنه تحدى جيش الله.

وافق شاول في النهاية، وألبس داود درعه ووضع خوذة نحاسية على رأسه وألبسه سلاحه، لكن داود لم يستطع الحركة بها لأنه لم يعتد عليها. فخلعها، وأخذ عصاه وخمسة أحجار ملساء من الوادي، ووضعها في كيس الراعي الذي يحمله، ثم أمسك مقلاعه وتوجه نحو جالوت.

عندما رأى جالوت داود، استهان به لأنه كان فتى صغيرًا لا يحمل سلاح محارب، وقال له باستخفاف إنه سيعطي جسده للطيور والوحوش. لكن داود أجابه بأنه جاء إليه باسم الرب، وأنه لا يعتمد على السيف والرمح، بل على إيمانه بأن الله قادر على منحه النصر.

اقترب جالوت، وأخذ داود حجرًا من الكيس ووضعه في مقلاعه، ثم أطلقه بقوة. أصاب الحجر جالوت في جبهته، فسقط على وجهه إلى الأرض. عندها أسرع داود إليه، وأخذ سيف جالوت من غمده، وقتله به، ثم قطع رأسه.

عندما رأى الفلستيون أن محاربهم الأقوى قد مات، هربوا، فاندفع الإسرائيليون وراءهم وطاردوهم، وهُزم الجيش الفلستي في ذلك اليوم.

وهكذا لم تكن مواجهة داود وجالوت مجرد مبارزة بين رجلين؛ بل كانت الرواية تبني المشهد من تحدي جالوت المتكرر، وخوف الجيش الإسرائيلي، ووصول داود إلى المعسكر، واعتراض شاول، وقصة الأسد والدب، ثم اختيار داود للمقلاع والحجارة، وأخيرًا سقوط جالوت وهروب الفلستيين.

داود وجالوت في الرواية الإسلامية

يروي القرآن قصة بني إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكًا يقودهم في القتال، فاختار الله لهم طالوت ملكًا.
اعترض بعض بني إسرائيل على اختياره، بحجة أنه لم يكن من أصحاب المال الكثير، فأجابهم نبيهم بأن الله اصطفاه عليهم وزاده بسطة في العلم والجسم. وجعل الله علامة ملكه أن يأتيهم التابوت وفيه سكينة من ربهم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون.

ثم قاد طالوت جيشه، وابتلاهم الله بنهر، فأمرهم نبيهم ألا يشربوا منه إلا غرفة باليد. فشرب معظمهم، وبقي عدد قليل ثبت على أمر الله. وعندما عبروا النهر وواجهوا جيش جالوت، شعر الذين شربوا بالخوف وقالوا إنهم لا طاقة لهم بجالوت وجنوده، بينما قال الذين ثبتوا: «ربنا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين».

ثم وقعت المواجهة، وكان داود بين جنود طالوت. ويذكر القرآن بوضوح أن الله نصر طالوت وجنوده، وأن داود قتل جالوت، ثم آتاه الله الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء.

أما التفاصيل المتعلقة بكيفية قتل جالوت، فهنا ننتقل من القرآن إلى كتب التفسير والروايات الإسلامية. يروي الطبري أن داود خرج إلى جالوت ومعه مقلاع وأحجار، وأنه أصاب جالوت بحجر في رأسه، فسقط، ثم احتز داود رأسه. وتذكر رواية الطبري أيضًا تفاصيل عن تجربة داود السابقة مع الأسد، وعن رفضه الاعتماد على الدرع والسلاح الثقيل.

أبطال جت الأربعة

لم تنتهِ المواجهات بين داود والفلستيين بمقتل جالوت، فقد استمرت الحروب بين الطرفين خلال السنوات التالية، وظهرت في صفوف الفلستيين مجموعة من المحاربين الأقوياء الذين تنسبهم الرواية إلى نسل رافا، أي إلى سلالة اشتهرت بالقوة

وضخامة البنية. وتروي الرواية أربع مواجهات بارزة بين هؤلاء المحاربين ورجال داود، حتى أصبحوا آخر من ظهر من أبطال ذلك النسل في الحروب بين الطرفين.

في إحدى المعارك ظهر إشبي بنوب، وكان يحمل رمحًا ثقيلًا وسيفًا جديدًا، وكان من نسل رافا. وكان داود قد تقدم في العمر، ولم يعد يتمتع بالقوة التي كانت له في شبابه، فكاد إشبي أن يقتله. لكن أبيشاي بن صروية، أحد رجال داود، تدخل في اللحظة الحاسمة، وضرب الفلستي وقتله. وبعد هذه الحادثة أقسم رجال داود ألا يسمحوا له بالخروج معهم إلى القتال مرة أخرى، خوفًا من أن يُقتل وينطفئ، كما قالوا، سراج إسرائيل.

وفي معركة أخرى ظهر محارب فلستي من نسل رافا يُدعى سَف، فواجهه سبكاي الحوشاتي، أحد رجال داود، وتمكن من قتله. ولم تكن المواجهة مجرد تفصيل عابر؛ فقد جاءت ضمن سلسلة من المعارك التي كان فيها رجال داود يواجهون المحاربين الفلستيين الأقوياء الذين اشتهرت بهم مدينة جت.

ثم وقعت مواجهة أخرى مع فلستي من جت، وتذكر الرواية أن إلحانان بن يَعْرِي قتله. ويرتبط هذا الاسم في بعض الترجمات والروايات بجليات، إلا أن النصوص القديمة تختلف في صياغة هذه النسبة، لذلك لا ينبغي أن نساوي بينه وبين جالوت الذي قتله داود دون توضيح هذا الاختلاف النصي.

أما أغرب هؤلاء المحاربين فكان رجلًا وُصف بأنه ذو ستة أصابع في كل يد وستة أصابع في كل قدم، أي أربعة وعشرون إصبعًا. وكان من نسل رافا أيضًا، وقد ظهر في مواجهة مع الإسرائيليين، فتصدى له يوناثان بن شمعي، أحد رجال داود من أقاربه، وقتله.

وهكذا تسجل الرواية أربع مواجهات مع محاربين من جت ومن نسل رافا، انتهت جميعها بمقتل هؤلاء الأبطال على أيدي رجال داود. وتأتي هذه القصص بعد قصة داود وجالوت، وكأنها تكشف أن جالوت لم يكن المحارب الضخم الوحيد الذي خرج من جت، بل كانت المدينة مرتبطة بسلسلة من المقاتلين الأقوياء الذين واصل رجال داود مواجهتهم في الحروب اللاحقة.

داود في جت عندما لجأ العدو إلى عدوه

والأكثر إثارة أن العلاقة بين داود والفلستيين لم تكن دائمًا مواجهة مباشرة. فبعد أن اشتد الصراع بين داود وشاول، لجأ داود إلى أرض الفلستيين، واتجه إلى جت، المدينة التي ارتبط اسمها في الرواية بجليات، وطلب الحماية من أخيش ملكها. وأقام هناك فترة مع رجاله، بل حصل على مدينة صقلغ ليقيم فيها. والمفارقة واضحة الرجل الذي اشتهر في الرواية بقتل جليات الفلستي وجد نفسه لاحقًا يعيش تحت حماية ملك فلستي. وتكشف هذه القصة جانبًا مختلفًا من عالم الممالك القديمة؛

فالحروب لم تمنع اللجوء والتحالف والمصالح السياسية. ولم تكن العلاقات بين الشعوب دائمًا أبيض وأسود؛ فقد يتغير موقع الشخص من عدو إلى حليف، ومن مطارد إلى لاجئ، تبعًا للظروف السياسية.

داود والفلستيون بعد توليه الحكم

لكن إقامة داود بين الفلستيين لم تكن نهاية الصراع. بعد أن أصبح ملكًا، عادت المواجهة بين الطرفين، وحاول الفلستيون التقدم ضده عندما علموا أنه أصبح ملكًا على إسرائيل. وتروي الرواية أن داود واجههم في أكثر من معركة، وأنه كان يستشير إلهه قبل الخروج إلى القتال، ثم يلاحق الفلستيين بعد هزيمتهم. وتكتسب هذه الأحداث أهمية لأنها تمثل انتقال العلاقة إلى مرحلة جديدة لم يعد داود رجلًا هاربًا يبحث عن مكان يحتمي فيه، بل أصبح ملكًا يمتلك جيشًا ومملكة، وأصبح الصراع مع الفلستيين جزءًا من تثبيت سلطته. وهكذا تظهر العلاقة بين الطرفين في الرواية على مراحل متغيرة عداء، ثم لجوء، ثم سياسة، ثم حرب من جديد.

يوم اجتمع الفلستيون في أفيق

تجمع الفلستيون استعدادًا لمواجهة الإسرائيليين، وكان جيشهم منظمًا في مجموعات كبيرة، بينما كان الإسرائيليون في مواجهة

قوة عسكرية ضاغطة. وتذكر الرواية أن القادة الفلستيين لاحظوا وجود داود بين رجال أخيش، فاعترضوا على مشاركته معهم، لأنهم لم يثقوا به وخشوا أن ينقلب عليهم في المعركة. وهكذا اضطر داود إلى مغادرة المعسكر والعودة إلى صقلغ قبل بدء المعركة. والمفارقة أن هذا القرار أنقذه من أن يكون في موقف غريب رجلٌ من إسرائيل يقف في صف الجيش الفلستي في مواجهة قومه السابقين. وتكشف القصة مرة أخرى أن العلاقات السياسية في تلك المرحلة لم تكن مجرد حرب مستمرة، بل كانت مليئة بالشك والتحالفات المؤقتة والولاءات المتغيرة

مصر والفلستيون

كانت مصر طرفًا مختلفًا في هذه المعادلة فموقع الفلستيين جعلهم قريبين جدًا من المجال الاستراتيجي المصري، خصوصًا في غزة والمناطق المحيطة بها.

وكان الطريق الساحلي بين مصر وبلاد الشام ذا أهمية كبرى للجيوش والتجارة، ولذلك اهتم المصريون بالسيطرة عليه أو ضمان أمنه.

ومع ضعف النفوذ المصري في بعض المراحل، أصبحت المدن الفلستية أكثر استقلالًا، لكن قربها من مصر ظل عاملًا أساسيًا في سياستها.

من الصراعات المحلية إلى عصر الإمبراطوريات

ظل هذا المشهد قائمًا ما دامت القوى المحلية هي اللاعب الأكبر لكن الوضع تغير عندما بدأت الإمبراطوريات الكبرى القادمة من بلاد الرافدين تتوسع نحو الغرب فقد أصبحت بلاد الشام هدفًا استراتيجيًا للإمبراطوريات التي أرادت الوصول إلى البحر المتوسط ومصر وكانت المدن الفلستية تقع في طريق هذا التوسع ومن هنا بدأت مرحلة جديدة تمامًا.

الفلستيون وصعود آشور

في القرون الأولى من العصر الحديدي، استطاعت المدن الفلستية أن تحافظ على قدر من الاستقلال، رغم الصراعات المتكررة مع القوى المحلية لكن ميزان القوى في الشرق الأدنى بدأ يتغير عندما عادت آشور إلى التوسع.

فمن قلب بلاد الرافدين ظهرت إمبراطورية أخذت تبني نظامًا جديدًا للسيطرة على الأراضي جيوش كبيرة، وحملات عسكرية متكررة، وفرض الجزية، وتنصيب الحكام، وضم المناطق إلى نظام إداري أكثر إحكامًا وكانت بلاد الشام من أهم أهداف هذا التوسع.

لماذا اهتم الآشوريون بالساحل؟

لم تكن المدن الفلستية بعيدة عن المصالح الآشورية.

فالساحل الجنوبي لبلاد الشام كان جزءًا من الطريق الذي يقود نحو مصر، كما كان يضم موانئ ومدنًا وأسواقًا وموارد زراعية.

وكانت الإمبراطورية الآشورية تنظر إلى السيطرة على هذه المنطقة بوصفها خطوة مهمة لتأمين طرقها الغربية ومنع خصومها من استخدام بلاد الشام قاعدة لمقاومة نفوذها.

ولهذا أصبحت غزة وأشدود وعسقلان وعقرون وجت جزءًا من الحسابات الآشورية.

مع صعود تغلث فلاسر الثالث في القرن الثامن قبل الميلاد، دخلت آشور مرحلة جديدة من القوة والتوسع.

فقد أعاد تنظيم الجيش والإدارة، وبدأت الحملات الآشورية تضرب مناطق واسعة من بلاد الشام ولم تكن الغاية دائمًا تدمير المدن في كثير من الأحيان كان الآشوريون يفرضون الجزية ويُبقون على الحاكم المحلي، ما دام يعترف بسلطة الملك الآشوري ويلتزم بدفع ما فُرض عليه لكن التمرد كان يغيّر المعادلة فالمدينة التي تتمرد قد تواجه حملة عسكرية قاسية، وقد تفقد حاكمها أو استقلالها أو جزءًا من سكانها.

غزة في مواجهة آشور

كانت غزة من أكثر المدن الفلستية حساسية بالنسبة إلى آشور بسبب موقعها القريب من مصر وتشير السجلات الآشورية إلى حكام غزة وعلاقاتهم بالإمبراطورية، كما تظهر المدينة في سياق الحملات التي استهدفت تثبيت النفوذ الآشوري على الطريق المؤدي إلى مصر.

وفي بعض المراحل حاول حكام غزة المناورة بين القوى الكبرى، مستفيدين من موقعهم بين مصر وآشور.

لكن هذا الموقع نفسه جعلهم عرضة للعقاب عندما اتخذوا موقفًا معاديًا للآشوريين وهنا تظهر إحدى سمات السياسة في تلك الفترة المدينة الصغيرة تستطيع المناورة، لكنها لا تستطيع تجاهل الإمبراطورية.

أشدود والتمرد

ارتبط اسم أشدود بواحدة من أشهر حركات التمرد ضد الحكم الآشوري ففي عهد سرجون الثاني، حدث تمرد في أشدود، وتدخلت آشور عسكريًا لقمعه.

وتقدم السجلات الآشورية صورة عن الطريقة التي تعاملت بها الإمبراطورية مع المدن المتمردة، بينما تكشف المصادر الأخرى عن وجود تغيرات سياسية وإدارية واسعة في المنطقة.

وكانت هذه الأحداث جزءًا من سياسة آشورية أوسع تهدف إلى منع أي قوة محلية من تشكيل مركز مقاومة على الساحل.

عقرون والضغط الآشوري

كانت عقرون مدينة مهمة اقتصاديًا، ولذلك لم تكن بمنأى عن الأحداث السياسية فالمصالح الآشورية في المنطقة لم تكن عسكرية فقط؛ فالزراعة والإنتاج والتجارة كانت جميعها جزءًا من الاقتصاد الإمبراطوري.

وكان زيت الزيتون الذي اشتهرت به عقرون من المنتجات التي يمكن أن تدخل في شبكات التبادل والجزية وبذلك أصبحت المدينة مرتبطة بالنظام الإقليمي الجديد الذي فرضته آشور.

جت مدينة تسقط

كانت جت من أقوى المدن الفلستية في مرحلة معينة، لكن قوتها لم تحمها من الإمبراطوريات الكبرى.

وتشير الأدلة الأثرية إلى تعرض الموقع المرتبط بجت، تل الصافي، لدمار واسع في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد، ويربط الباحثون هذا الدمار بحملة آشورية.

وهنا نرى الفارق الهائل بين الحروب القديمة السابقة والحرب الإمبراطورية فالمدينة التي تستطيع مقاومة خصم محلي قد تجد

نفسها عاجزة أمام جيش إمبراطوري يمتلك القدرة على حصارها ثم تدميرها.

وبعد هذا الدمار تراجعت جت عن مكانتها السابقة، ولم تعد إحدى القوى الكبرى التي كانت عليها في مراحل أقدم.

سنحاريب والمدن الفلستية

بعد سرجون الثاني جاء سنحاريب، الذي واصل سياسة التوسع الآشوري وفي نهاية القرن الثامن وبداية القرن السابع قبل الميلاد، أصبحت بلاد الشام مسرحًا لحملات عسكرية متكررة، خصوصًا عندما حاولت القوى المحلية الاستفادة من التغيرات السياسية أو من دعم مصر وكانت المدن الفلستية جزءًا من هذه الصراعات وقد كان موقف كل مدينة مختلفًا بحسب مصالحها وحكامها.

وهذا مهم، لأننا لا نستطيع الحديث عن «موقف فلستي واحد» تجاه آشور فمدينة قد تدفع الجزية وتقبل الحكم الآشوري، بينما تتمرد مدينة أخرى، وقد تتحالف ثالثة مع مصر.

الترحيل وإعادة تشكيل السكان

استخدم الآشوريون أيضًا سياسة نقل السكان وكان الهدف من هذه السياسة إضعاف المناطق المتمردة ومنع عودة الثورات، وفي الوقت نفسه إعادة توزيع السكان داخل الإمبراطورية.

وهذا لا يعني أن كل سكان مدينة فلستية نُقلوا، ولا أن الفلستيين اختفوا دفعة واحدة لكن عمليات الترحيل والهجرة والاستيطان المختلط كانت من العوامل التي غيرت التركيبة السكانية والثقافية للمدن وأصبح المجتمع الفلستي يعيش داخل عالم إمبراطوري أكثر تنوعًا.

بداية النهاية السياسية

مع التوسع الآشوري أصبحت المدن الفلستية أقل قدرة على اتخاذ قراراتها بصورة مستقلة وبعضها دُمّر، وبعضها خضع، وبعضها أعيد تنظيمه.

ثم ستشهد المنطقة لاحقًا تغيرات جديدة مع تراجع آشور وظهور قوى أخرى، لكن العالم الذي سيخرج من هذه التحولات لن يكون هو العالم الفلستي القديم لقد بدأت مرحلة جديدة، وفيها ستتغير هوية السكان أنفسهم نتيجة الترحيل والاختلاط والإدارة الإمبراطورية والتغير السياسي.

آشور لا تدمر كل شيء

من السهل أن نتخيل الإمبراطوريات القديمة وهي تدخل المدن ثم تحرق كل شيء، لكن الواقع كان أكثر تعقيدًا.

كانت آشور تحتاج إلى المدن أكثر مما تحتاج إلى خرابها الدائم.

فالمدينة التي تدفع الجزية وتوفر المحاصيل والمنتجات والعمال والجنود يمكن أن تكون أكثر فائدة من مدينة مدمرة.

ولهذا نجد في كثير من الحالات استمرار الحياة الحضرية بعد الخضوع للآشوريين وتحولت المدن الفلستية تدريجيًا إلى جزء من شبكة اقتصادية وسياسية أوسع.

وبقيت الزراعة والتجارة والصناعة مستمرة، لكن في إطار إمبراطوري جديد.

من الفلستيني إلى سكان الإمبراطورية

في المرحلة الأولى كان من الممكن أن يكون الشخص مرتبطًا بمدينته وهويته الفلستية في الوقت نفسه.

لكن عندما تغير النظام السياسي، أصبحت هناك هويات أخرى تضاف إلى هذه الهوية هوية المدينة، وهوية الإقليم، وهوية الإمبراطورية التي يعيش تحت حكمها السكان.

ولم يكن هذا التغير خاصًا بالفلستيين فالإمبراطوريات القديمة أعادت تشكيل هويات شعوب كثيرة بالطريقة نفسها.

وقد يؤدي سقوط المملكة أو المدينة إلى اختفاء الاسم السياسي، بينما يستمر السكان لقرون بعد ذلك.

بعد آشور

لم تبقَ آشور القوة المهيمنة إلى الأبد ففي أواخر القرن السابع قبل الميلاد، انهارت الإمبراطورية الآشورية تحت ضغط أعدائها، ودخل الشرق الأدنى مرحلة جديدة من الصراع بين القوى الصاعدة ثم أصبحت المنطقة تحت نفوذ الإمبراطورية البابلية الحديثة، التي واصلت بدورها توسيع نفوذها في بلاد الشام وكانت المدن الفلستية جزءًا من هذه التحولات.

لكن بحلول هذه المرحلة لم يعد العالم الفلستي القديم كما كان.

فقد تعرضت المدن للحروب والدمار، وتغيرت أنظمتها السياسية، وتحرك السكان، واختلطت الجماعات، وأصبحت هويات جديدة أكثر حضورًا.

نبوخذ نصر والمدن الساحلية

شهدت بلاد الشام حملات بابلية في عهد نبوخذ نصر الثاني، وأصبحت المدن الساحلية مرة أخرى جزءًا من الصراع بين القوى الكبرى وتشير الأدلة التاريخية والأثرية إلى استمرار وجود مراكز سكانية في المنطقة، لكن الصورة التي كانت عليها المدن الفلستية في القرون السابقة لم تعد قائمة.

نهاية شعب أم نهاية هوية؟

ربما تكون عبارة «نهاية الفلستيين» مضللة إذا فهمناها حرفيًا.

فالأدق أن نقول إن الفلستيين فقدوا هويتهم السياسية المستقلة تدريجيًا، ثم اندمجوا في المجتمعات التي عاشت تحت القوى المتعاقبة على المنطقة وهذا النوع من النهايات شائع جدًا في التاريخ فكثير من الشعوب القديمة لم تُبادَ، وإنما تغير اسمها ولغتها وثقافتها وانتماؤها السياسي عبر القرون والفلستيون ليسوا استثناءً.

لكن السؤال يبقى كيف نعرف كل هذا؟

هل نستطيع الاعتماد على الروايات المصرية والتوراتية والآشورية وحدها؟

أم أن الآثار تخبرنا بقصة مختلفة؟

علم الآثار الحيوي

أضافت دراسة الهياكل العظمية والأسنان معلومات جديدة إلى النقاش فالعظام يمكن أن تكشف عن بعض جوانب حياة الأشخاص، مثل الغذاء والصحة والحركة، بينما تستطيع بعض الدراسات الكيميائية أن تساعد في معرفة ما إذا كان الشخص قد نشأ في منطقة معينة ثم انتقل إلى مكان آخر.

لكن هذه الدراسات لا تعطي عادة جوابًا بسيطًا من نوع فلستي أو غير فلستي فالإنسان لا يحمل هويته السياسية داخل عظامه.

وحتى الشخص الذي وُلد خارج بلاد الشام قد يصبح جزءًا من مجتمعها بعد سنوات من الاستقرار والزواج والاندماج.

ولهذا يجب تفسير هذه النتائج ضمن السياق الأثري الأوسع.

علم الوراثة

أدخلت الدراسات الجينية الحديثة أداة جديدة إلى النقاش حول أصل الفلستيين وقد أشارت بعض الأبحاث إلى وجود عنصر سكاني جديد ظهر في جنوب بلاد الشام خلال الفترة التي ارتبطت ببدايات المجتمع الفلستي، مع وجود صلات بمناطق في جنوب أوروبا أو شرق المتوسط.

لكن هذه الإشارات لا تعني أن الفلستيين كانوا أوروبيين ببساطة فالتركيب السكاني يتغير عبر الزمن، وقد حدث تزاوج واندماج بين السكان الوافدين والسكان المحليين.

وتشير الدراسات إلى أن بعض الإشارات المرتبطة بالوافدين تقل مع مرور الأجيال، وهو ما يتوافق مع صورة مجتمع جديد تشكل من التفاعل بين مجموعات مختلفة.

وهنا تتفق الأدلة الجينية مع جزء من الصورة التي يقدمها علم الآثار، بدل أن تحل القضية وحدها.

هل كانوا شعوب بحر؟

ربط الفلستيين بشعوب البحر من أكثر النقاط شهرة في تاريخهم وهناك أسباب قوية لهذا الربط، أهمها ورود اسم قريب من «بلست» في النصوص المصرية، وظهور عناصر ثقافية ذات صلات بشرق المتوسط في المواقع الفلستية المبكرة.

لكن عبارة «شعوب البحر» نفسها تحتاج إلى الحذر.

فالمصطلح لا يعني شعبًا واحدًا، ولا نعرف بالتأكيد أن جميع الجماعات التي أطلق عليها المصريون هذه الأسماء كانت جزءًا من حركة واحدة منظمة.

لذلك فإن القول إن الفلستيين كانوا واحدًا من شعوب البحر أكثر دقة من القول إن شعوب البحر كانوا جميعًا فلستيين.

عندما تتحدث الآثار

ربما تكون أهم نتيجة من دراسة الفلستيين أن التاريخ لا يُكتب من مصدر واحد.

فالنقش المصري يخبرنا شيئًا.

والسجل الآشوري يضيف شيئًا آخر.

والرواية التوراتية تحفظ ذاكرة مختلفة.

والفخار يكشف تغيرًا ثقافيًا.

والعظام تكشف جوانب من حياة البشر.

والمدن المدمرة تخبرنا عن الحروب.

والبقايا النباتية والحيوانية تكشف الاقتصاد والطعام.

وعندما نجمع كل هذه الأدلة، تظهر أمامنا صورة أكثر واقعية من أي مصدر منفرد.

إنها صورة مجتمع نشأ من تداخل جماعات مختلفة، واستقر في الساحل الجنوبي لبلاد الشام، وبنى مدنًا قوية، وطور ثقافة مميزة، ودخل في صراعات وتحالفات مع جيرانه، ثم فقد استقلاله تدريجيًا أمام الإمبراطوريات الكبرى.

لكن حتى بعد أن أصبح واضحًا أن الفلستيين لم يعودوا قوة سياسية مستقلة، لكن ما نعرفه يكفي لنقول إن الفلستيين لم يكونوا مجرد أعداء ظهروا في رواية شعب آخر.

كانوا مجتمعًا حقيقيًا، عاش قرونًا، وبنى مدنًا واقتصادًا وثقافة ومؤسسات، وترك وراءه آثارًا ما زالت تسمح لنا اليوم باستعادة جانب من قصته.

الحثيون

فهناك، إلى الشمال، ظهرت واحدة من أقوى إمبراطوريات العصر البرونزي المتأخر، دولة سيطرت على مساحات واسعة من الأناضول وامتد نفوذها إلى شمال بلاد الشام، ودخلت في صراع مباشر مع مصر.

في الوقت الذي كانت فيه ممالك بلاد الشام تتغير وتتسابق على النفوذ، كانت قوة كبرى تنمو إلى الشمال في هضاب الأناضول هناك، بعيدًا عن وادي النيل وبلاد الرافدين، ظهرت دولة ستصبح خلال العصر البرونزي المتأخر واحدة من أعظم القوى في الشرق الأدنى مملكة الحثيين.

لم يكن الحثيون مجرد شعب عابر في تاريخ الأناضول، ولم يكونوا مجرد قوة ظهرت في قصة الحوريين أو ميتاني.

لقد أسسوا دولة واسعة، امتلكت جيشًا قويًا، ونظامًا سياسيًا معقدًا، وشبكة من العلاقات الدبلوماسية امتدت من الأناضول إلى شمال بلاد الشام، ووصلت في ذروة قوتها إلى مواجهة مصر مباشرة.

من هم الحثيون؟

كان مركز الدولة الحثية في وسط الأناضول، وكانت عاصمتها حاتوشا وقد تطورت المملكة تدريجيًا حتى أصبحت قوة إقليمية كبرى خلال الألفية الثانية قبل الميلاد وكان المجتمع الحثي متعدد العناصر فالأناضول نفسها كانت تضم جماعات ولغات وتقاليد مختلفة، والحثيون حكموا مناطق لم يكن سكانها جميعًا حثيين بالمعنى نفسه ولهذا كانت الدولة الحثية إمبراطورية متعددة الشعوب والثقافات.

حاتوشا

كانت حاتوشا قلب الدولة الحثية تقع آثارها اليوم في شمال وسط تركيا، وتكشف عن مدينة ضخمة محاطة بالتحصينات والأبواب الحجرية والمباني الرسمية والمعابد ومن أشهر معالمها بوابة الأسود وبوابة أبو الهول والتحصينات الضخمة والمجمعات الدينية والقصر الملكي.

كما اكتُشفت فيها آلاف الألواح الطينية المكتوبة بالمسمارية وهذه الألواح هي أحد أهم مصادر معرفتنا بالحيثيين.

اللغة والكتابة

كانت اللغة الحثية من أقدم اللغات الهندو-أوروبية المعروفة كتابةً لكن الحثيين استخدموا الكتابة المسمارية التي تأثرت بتقاليد بلاد الرافدين وهذا مثال آخر على التفاعل الثقافي في الشرق الأدنى فالحثيون لم يكونوا معزولين عن العالم بل تبنوا أدوات الكتابة والدبلوماسية والإدارة من الحضارات المجاورة وطوروها بما يناسب دولتهم.

أرشيف حاتوشا

تكمن أهمية حاتوشا في أرشيفها الضخم فالألواح الحثية تتحدث عن المعاهدات والحروب والمراسلات الملكية والطقوس الدينية والقوانين والأساطير والمشكلات الإدارية والعلاقات مع الدول الأجنبية ومن خلال هذه النصوص نستطيع رؤية الإمبراطورية الحثية من الداخل.

الملوك الأوائل

برز عدد من الملوك في تاريخ الدولة الحثية ومن أهمهم حاتوسيلي الأول، الذي ساهم في توسيع المملكة وترسيخ قوتها ثم جاء مورشيلي الأول، الذي قام بحملة بعيدة المدى وصلت إلى بابل وكان وصول جيش حثي إلى بابل حدثًا استثنائيًا يوضح

مدى القوة التي أصبحت تتمتع بها الدولة لكن الدولة الحثية مرت بعد ذلك بمراحل من الاضطراب والصراعات الداخلية.

تيليبينو ومحاولة تنظيم الحكم

كان انتقال العرش من أكبر مشكلات الدولة الحثية فالصراعات داخل الأسرة الملكية كانت تهدد استقرار الدولة ولهذا ارتبط الملك تيليبينو بمحاولة تنظيم قواعد الخلافة وتقليل الصراع داخل البيت الملكي وتكشف هذه القوانين عن مشكلة أساسية في جميع الممالك القديمة

كيف ينتقل الحكم من ملك إلى آخر دون أن تتحول وفاة الملك إلى حرب أهلية؟

صعود الحثيين من جديد

بعد فترات من الضعف، عادت الدولة الحثية لتصبح قوة كبرى في العصر ا لبرونزي المتأخر وفي القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد تقريبًا وصلت إلى ذروة نفوذها وكان من أبرز ملوك هذه المرحلة شوبيلوليوما الأول

كان شوبيلوليوما واحدًا من أعظم ملوك الحثيين وسع نفوذ الدولة في الأناضول واتجه بقوة نحو بلاد الشام.

لأن بلاد الشام كانت منطقة استراتيجية لا يمكن للقوى الكبرى تجاهلها وكانت حلب وعمورو وممالك شمال سوريا من أهم المناطق في هذا الصراع.

ميتاني والحثيون

كانت مملكة ميتاني قد لعبت دورًا مهمًا في شمال بلاد الشام قبل صعود الحثيين وكانت تسيطر على مناطق واسعة، وكانت حلب مرتبطة بنفوذها لفترات لكن ميتاني دخلت في مرحلة ضعف واستغل شوبيلوليوما هذا الضعف تحرك الحثيون جنوبًا، وشنوا حملات عسكرية ضد مناطق ميتاني وحلفائها وبهذا أصبحت شمال بلاد الشام مجالًا رئيسيًا للصراع بين القوى الكبرى.

حلب

كانت حلب من أهم مراكز شمال بلاد الشام ولم تكن أهميتها نابعة من حجمها فقط بل من موقعها.

كانت تقع على طرق تربط الأناضول ببلاد الشام وبلاد الرافدين كما كانت مرتبطة بمركز ديني مهم لعبادة إله العاصفة ولهذا كان السيطرة على حلب تعني امتلاك مفتاح استراتيجي مهم في المنطقة.

عمورو

إلى الجنوب من مناطق نفوذ الحثيين ظهرت مملكة عمورو وكانت تقع في منطقة الساحل الشمالي والداخل القريب من الساحل، تقريبًا في مناطق لبنان وسوريا الساحلية والشمالية بحسب المرحلة التاريخية وكانت عمورو دولة صغيرة نسبيًا، لكنها ذات أهمية استراتيجية فموقعها جعلها بين قوتين عظيمتين الحثيين شمالًا ومصر جنوبًا.

وكان على ملوكها أن يلعبوا سياسة دقيقة جدًا.

مصر والحثيون

وهنا دخل الحثيون في منافسة مباشرة مع واحدة من أعظم القوى في العالم القديم مصر.

كانت مصر قد فرضت نفوذها على أجزاء من بلاد الشام خلال عصر الدولة الحديثة وكانت المدن والممالك الشامية تقدم الجزية وتدخل في تحالفات مع المصريين لكن صعود الحثيين غيّر ميزان القوى فلم تعد مصر قادرة على التعامل مع بلاد الشام باعتبارها مجالًا خاصًا بها ظهر منافس قوي من الشمال.

لعبة التحالفات

أصبحت ممالك بلاد الشام الصغيرة عالقة بين الإمبراطوريتين وقد تتحالف مدينة مع مصر في سنة ثم تميل إلى الحثيين في سنة أخرى وكانت الرسائل الدبلوماسية التي اكتُشفت في أرشيفات الشرق الأدنى تكشف مدى تعقيد هذه العلاقات كان الملوك يرسلون الهدايا ويطلبون المساعدة ويشتكون من خصومهم ويطلبون إرسال قوات وأحيانًا يطلبون الحماية وكانت السياسة الدولية في العصر البرونزي المتأخر أكثر تعقيدًا مما قد نتخيل.

رسائل تل العمارنة

من أهم المصادر التي تساعدنا على فهم هذه المرحلة رسائل العمارنة في مصر وهي مجموعة كبيرة من المراسلات الدبلوماسية المكتوبة بالمسمارية أرسلها ملوك وأمراء من بلاد الشام إلى الفراعنة وتكشف عن عالم مليء بالمنافسة والقلق.

فأحد الحكام يطلب قوات وآخر يحذر من هجوم وثالث يشكو من حاكم مجاور وهذا يعني أن بلاد الشام لم تكن منطقة هادئة تحت سيطرة مصر بل كانت مليئة بالممالك التي تحاول حماية مصالحها وسط صراع القوى الكبرى.

شوبيلوليوما ومصر

دخل الحثيون ومصر في مرحلة من المنافسة المباشرة على السيطرة والنفوذ وكانت الأحداث أكثر تعقيدًا من مجرد حرب واحدة فقد كانت هناك تحالفات وحملات عسكرية وتغيرات في ولاء الممالك المحلية لكن ذروة الصراع ستأتي لاحقًا عندما يصل إلى الحكم في مصر أحد أشهر الفراعنة رمسيس الثاني وسيواجه الملك الحثي مواتالي الثاني وفي ساحة المعركة، عند مدينة قادش، ستلتقي الإمبراطوريتان في واحدة من أشهر معارك العصر البرونزي معركة قادش.

معركة قادش مصر في مواجهة الحثيين

وصل الصراع بين مصر والحثيين إلى ذروته في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وفي قلب بلاد الشام، قرب نهر العاصي، كانت هناك مدينة استراتيجية اسمها قادش.

كانت السيطرة عليها مهمة لأنها تقع على طرق تربط شمال بلاد الشام بجنوبها، ولذلك أصبحت نقطة صراع بين النفوذين المصري والحثي وفي هذا المكان وقعت واحدة من أشهر معارك العالم القديم معركة قادش.

رمسيس الثاني

كان على عرش مصر الفرعون رمسيس الثاني، أحد أشهر ملوك الدولة الحديثة ورث دولة قوية ذات نفوذ واسع، وكان يريد الحفاظ على السيطرة المصرية في بلاد الشام أما في الجانب الآخر فكان الملك الحثي مواتالي الثاني وكان يعرف أن استمرار النفوذ المصري في شمال بلاد الشام يمثل خطرًا على المصالح الحثية وهكذا أصبح الصدام بينهما شبه حتمي.

مواتالي الثاني

كان مواتالي الثاني حاكمًا قويًا، وركز جزءًا كبيرًا من اهتمامه على مواجهة مصر وحشد جيشًا كبيرًا، وجمع إلى جانبه قوات من عدد من الممالك والكيانات التابعة أو الحليفة في بلاد الشام وهذه نقطة مهمة لم تكن المعركة مجرد مواجهة بين المصريين والحثيين وحدهما كانت الجيوش القديمة تضم قوات من مناطق مختلفة، لأن الممالك الكبرى كانت تعتمد على حلفائها وتابعيها.

قرر رمسيس الثاني التقدم شمالًا وقاد جيشه بنفسه وتشير الروايات المصرية إلى أنه قسم الجيش إلى عدة تشكيلات، عُرفت بأسماء مرتبطة بآلهة مصرية، من بينها آمون ورع وبتاح وست وكانت هذه الوحدات تتحرك باتجاه قادش.

الخدعة الحثية

بحسب الرواية المصرية، وقع رمسيس في خدعة فقد أسر المصريون شخصين زُعم أنهما من البدو، وأخبرا الملك أن الجيش الحثي بعيد عن قادش لكن المعلومات كانت كاذبة كان الجيش الحثي قريبًا جدًا وبمجرد أن اكتشف المصريون الحقيقة، كان رمسيس قد أصبح في وضع خطير.

شن الحثيون هجومًا مفاجئًا على إحدى التشكيلات المصرية وكانت قوة الهجوم كبيرة وتعرض الجيش المصري لاضطراب شديد وأصبح رمسيس في وضع حرج.

لكن الرواية المصرية تصفه بأنه جمع قواته وقاتل بشجاعة، وتمكن من الصمود حتى وصلت قوات أخرى لمساندته.

وقد أمر رمسيس بتسجيل انتصاره على جدران عدد من المعابد وتظهر النقوش الفرعون وهو يقاتل أعداءه ويهزمهم لكن هذه النقوش ليست تقريرًا عسكريًا محايدًا إنها دعاية ملكية أيضًا فالفرعون في الفن المصري القديم يظهر بوصفه المنتصر الذي يحمي مصر ولهذا لا ينبغي أن نأخذ كل تفاصيل الرواية المصرية حرفيًا.

هل انتصر رمسيس؟

هنا تكمن واحدة من أشهر المسائل التاريخية.

المصريون قدموا قادش باعتبارها انتصارًا عظيمًا لرمسيس لكن لا يبدو أن مصر حققت نصرًا حاسمًا أدى إلى تدمير الدولة الحثية أو السيطرة الدائمة على قادش بل استمر الحثيون قوة كبرى بعد المعركة ولهذا يرى كثير من الباحثين أن المعركة كانت أقرب إلى مواجهة غير حاسمة، وأن رمسيس نجح في النجاة من موقف عسكري خطير، لكنه لم يحقق النصر الساحق الذي توحي به الدعاية الملكية.

من الطبيعي أن تكون الرواية الحثية مختلفة فالحثيون لم ينظروا إلى المعركة باعتبارها هزيمة لهم وكان استمرار سيطرتهم على مناطق مهمة في شمال بلاد الشام دليلًا على أن مصر لم تستطع حسم الصراع لصالحها وهنا تظهر مشكلة أساسية في دراسة التاريخ القديم

الطرف المنتصر هو غالبًا من يكتب الرواية التي تصل إلينا لكن في قادش لدينا روايتان متنافستان، وهذا يجعل المقارنة أكثر إثارة.

أهمية قادش

ربما لم تكن قادش أعظم معركة من حيث النتائج العسكرية المباشرة لكن أهميتها التاريخية ضخمة فهي تظهر أن مصر والحثيين كانتا قوتين عظميين تتنافسان على بلاد الشام وتكشف عن تعقيد الجيوش والتحالفات وتعطينا معلومات عن تكتيكات

العربات الحربية وتوضح أهمية المدن الشامية في السياسة الدولية والأهم أنها ستقود بعد سنوات إلى نتيجة غير متوقعة السلام.

العربات الحربية

كانت العربات من أهم أسلحة العصر البرونزي المتأخر وكانت تجرها الخيول، ويقف عليها عادة أكثر من شخص وكانت تستخدم في الحركة السريعة والهجوم وإرباك قوات المشاة وقد امتلك الحثيون خبرة كبيرة في استخدام العربات كما امتلك المصريون قوات عربات متطورة ولذلك كانت المعركة تعتمد بدرجة كبيرة على قدرة كل جيش على استخدام هذه الوحدات في أرض مناسبة.

قادش ليست نهاية الصراع

بعد المعركة لم تختفِ المنافسة بين مصر والحثيين استمرت المراسلات والتحالفات والصراعات على النفوذ وكانت ممالك بلاد الشام لا تزال ساحة مهمة للمنافسة لكن شيئًا بدأ يتغير لم يعد من السهل على أي من الإمبراطوريتين تحقيق سيطرة مطلقة وفي الوقت نفسه ظهرت أخطار أخرى في المنطقة ومن بينها الاضطرابات التي ستصيب شرق المتوسط في نهاية العصر البرونزي.

من الحرب إلى الدبلوماسية

بدأت العلاقات بين مصر والحثيين تتحول تدريجيًا من الصدام إلى التفاوض وكانت هذه خطوة ذكية من الطرفين
فالإمبراطوريتان كانتا تعرفان أن الحرب المستمرة مكلفة كما أن كل طرف كان يواجه مشكلات أخرى وكانت هناك حاجة إلى تثبيت الحدود والنفوذ.

زواج سياسي

كانت الزيجات الملكية وسيلة مهمة في الدبلوماسية القديمة فلم تكن الزيجة بين أمير وأميرة مجرد علاقة عائلية كانت وسيلة لتثبيت التحالفات وبعد سنوات من الصراع، تزوج رمسيس الثاني من أميرة حثية، في إطار التحالف بين القوتين وكان هذا حدثًا سياسيًا مهمًا لكن الحدث الأكبر كان سيأتي في عهد رمسيس الثاني نفسه فبعد نحو عقدين من قادش، اتجهت مصر والحيثيون إلى صياغة اتفاق رسمي معاهدة السلام المصرية الحثية وستصبح هذه المعاهدة واحدة من أشهر الوثائق الدبلوماسية في العالم القديم.

معاهدة السلام المصرية الحثية

لم تكن المعاهدة نتيجة معركة قادش وحدها فبعد قادش استمر التنافس فترة طويلة لكن المنطقة كانت تمر بتغيرات سياسية كبيرة، وكانت الدولتان بحاجة إلى الاستقرار.

كما أن الحثيين كانوا يواجهون أخطارًا ومشكلات في مناطق أخرى، بينما كانت مصر بحاجة إلى الحفاظ على نفوذها ومصالحها دون الدخول في حرب مفتوحة لا تنتهي وهنا أصبح السلام خيارًا عمليًا.

حاتوسيلي الثالث

كان الملك الحثي الذي ارتبط بالمعاهدة حاتوسيلي الثالث وكان رجلًا ذا خبرة سياسية كبيرة وخلال حكمه عمل على تثبيت موقع الدولة الحثية وإدارة علاقاتها مع القوى المجاورة.

أما في مصر فكان الملك رمسيس الثاني قد حكم لعقود طويلة وأصبح من أكثر الفراعنة قوة وشهرة.

المعاهدة

تم إبرام المعاهدة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، نحو ١٢٥٩ قبل الميلاد تقريبًا، بحسب التأريخ التقليدي وكانت مكتوبة بصيغة دبلوماسية رسمية وقد عُرفت في النصوص

المصرية والحثية والنسخة الحثية اكتُشفت ضمن أرشيف حاتوشا أما النص المصري فحُفظ في نقوش معابد رمسيس الثاني وهذا يجعل المعاهدة مميزة جدًا فنحن لا نعرفها من طرف واحد فقط بل توجد لدينا صيغتها في تقليدين سياسيين مختلفين.

السلام بين ملكين

تبدأ المعاهدة بصيغة تؤكد العلاقة بين الملكين وتقرر أن يكون هناك سلام وأخوة بين مصر والحيثيين وكلمة الأخوة هنا ليست مجرد مجاملة كانت جزءًا من لغة الدبلوماسية الدولية في ذلك العصر فملوك القوى الكبرى كانوا يتعاملون مع بعضهم باعتبارهم إخوة في النظام الدولي.

عدم الاعتداء

من أهم بنود الاتفاق أن الطرفين يتعهدان بعدم مهاجمة الآخر وكان هذا تحولًا مهمًا فبعد سنوات من الصراع على بلاد الشام، أصبح الطرفان يعترفان بضرورة الحفاظ على السلام.

المساعدة المتبادلة

تضمنت المعاهدة أيضًا التزامًا بالمساعدة في مواجهة بعض الأخطار كما تضمنت بندًا مهمًا يتعلق بالهاربين فإذا فر أحد الأشخاص من دولة إلى الدولة الأخرى، كان هناك التزام

بإعادته وفق شروط معينة وهذا يدل على أن المعاهدة لم تكن مجرد إعلان صداقة كانت وثيقة قانونية ودبلوماسية مفصلة.

القسم بالآلهة

كما كان متوقعًا في العالم القديم، ارتبطت المعاهدة بالآلهة ففي التصور السياسي آنذاك لم تكن المعاهدات اتفاقات بشرية فقط كانت الآلهة تشهد عليها وكان خرق الاتفاق يعني خرق قسم مقدس وهذا يعطي المعاهدة بُعدًا دينيًا إلى جانب بعدها السياسي

أقدم معاهدة سلام؟

تُوصف المعاهدة المصرية الحثية كثيرًا بأنها أقدم معاهدة سلام معروفة في التاريخ لكن هذه العبارة تحتاج إلى قليل من الدقة. فالعالم القديم عرف اتفاقات ومعاهدات أقدم منها.

لكن ما يجعل المعاهدة المصرية الحثية استثنائية هو أنها من أقدم معاهدات السلام الدولية المعروفة بنص واضح ومفصل، والتي بقيت نسخ منها من الطرفين ولهذا أصبحت رمزًا مبكرًا للدبلوماسية الدولية.

نسخة الأمم المتحدة

في العصر الحديث أصبحت المعاهدة رمزًا للسلام وتوجد نسخة حديثة منها في مقر الأمم المتحدة في نيويورك وقد أصبحت

وثيقة حاضرة في تاريخ الدبلوماسية الدولية لكن قيمتها التاريخية لا تأتي من كونها أول سلام في العالم بالمعنى المطلق بل لأنها تقدم مثالًا واضحًا على كيفية تفاوض قوتين عظميين قديمتين بعد حرب طويلة.

حلب وعمورو بعد المعاهدة

لكن السلام بين مصر والحثيين لم يعنِ اختفاء الصراع على بلاد الشام فالمدن والممالك الصغيرة بقيت مهمة ومن بينها عمورو وغيرها من الممالك الواقعة بين مناطق النفوذ وكانت هذه الدول مضطرة إلى التعامل مع الإمبراطوريات الكبرى بحذر.

أما حلب فبقيت مركزًا استراتيجيًا مهمًا في شمال بلاد الشام وهكذا ظل شمال سوريا واحدًا من أهم المفاتيح الجغرافية في المنطقة.

نهاية حاتوشا

في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد تقريبًا تخلت الدولة الحثية عن عاصمتها حاتوشا وتفككت الإمبراطورية الكبرى لكن هذا لا يعني اختفاء كل الحثيين فبعض الممالك الصغيرة التي نطلق عليها اليوم اسم الممالك الحثية الجديدة استمرت في شمال سوريا وجنوب الأناضول ومنها كيانات مهمة مثل

كركميش وهكذا لم تختفِ الثقافة الحثية فجأة بل استمرت في أشكال جديدة.

إرث الحثيين

ترك الحثيون وراءهم إرثًا ضخمًا في القانون والدبلوماسية والعمارة والكتابة والفن والعلاقات الدولية والتاريخ العسكري.

وكانوا واحدًا من القوى الكبرى التي صنعت عالم العصر البرونزي المتأخر.

والأهم أنهم يثبتون لنا أن بلاد الشام لم تكن هامشًا بعيدًا عن الحضارات الكبرى بل كانت قلب الصراع بين الإمبراطوريات.

مصر أرادت السيطرة عليها.

والحثيون أرادوا السيطرة على شمالها.

وميتاني نافست فيها.

وآشور ستتقدم إليها لاحقًا.

وبابل وبلاد فارس ستفعلان الشيء نفسه في عصور لاحقة.

ولهذا فإن تاريخ بلاد الشام لا يمكن فهمه من خلال شعوبها وحدها بل يجب أن نراه أيضًا من خلال موقعها بين القوى الكبرى.

ماذا حدث في بلاد الشام بعد انهيار الحثيين؟

ففي الفراغ الذي تركه انهيار إمبراطوريات العصر البرونزي، ستظهر ممالك جديدة، وستصعد شعوب جديدة، وستتغير خريطة المنطقة بالكامل ومن بين هذه الممالك ستبرز الممالك الحثية الجديدة، والآراميون، والفينيقيون، والإسرائيليون، والفلستيون، وستبدأ مرحلة جديدة من تاريخ بلاد الشام في العصر الحديدي.

من سقوط الإمبراطورية إلى الممالك الحثية الجديدة

لم يؤدِّ سقوط الإمبراطورية الحثية إلى اختفاء الحثيين من التاريخ وهذه نقطة مهمة جدًا فمع انهيار الدولة الكبرى في الأناضول في نهاية العصر البرونزي، تفككت السلطة المركزية، لكن بعض المراكز السياسية والثقافية استمرت في جنوب الأناضول وشمال بلاد الشام ومن بين هذه المراكز ظهرت مجموعة من الممالك التي يسميها المؤرخون اليوم الممالك الحثية الجديدة لكن هذا الاسم يحتاج إلى توضيح فلم تكن هذه الممالك مجرد نسخة مصغرة من الإمبراطورية الحثية القديمة، ولم تكن جميعها متطابقة في هويتها لقد كانت دولًا جديدة نشأت في عالم سياسي مختلف، وحملت معها عناصر من التراث الحثي واللووي والسوري المحلي أما اللوويين هم شعب قديم عاش في مناطق الأناضول و كانت لغة و ثقافة مميزة

كركميش

كانت كركميش من أهم هذه الممالك تقع على الفرات، في موقع استراتيجي جعلها مركزًا مهمًا للتجارة والسياسة وكانت المدينة قديمة جدًا، وارتبطت سابقًا بالإمبراطورية الحثية وبعد سقوط حاتوشا لم تختفِ كركميش بل أصبحت واحدة من أقوى المراكز السياسية في شمال بلاد الشام.

وكان ملوكها يحملون تقاليد مرتبطة بالملكية الحثية القديمة، بينما كانت لغاتهم وثقافتهم تعكس أيضًا البيئة السورية المحلية.

مملكة ملِيد

إلى الغرب ظهرت ملِيد، التي عُرفت لاحقًا باسم ملِيد/ملِديا في المصادر المختلفة كانت تقع في منطقة الأناضول الجنوبية الشرقية، وكانت واحدة من المراكز المهمة التي حافظت على عناصر من التراث السياسي والثقافي الذي خلفته الإمبراطورية الحثية لكنها لم تكن تعيش بمعزل عن جيرانها فقد دخلت في علاقات وصراعات مع الممالك الآرامية والقوى الآشورية الصاعدة.

سمأل

ومن الممالك المهمة أيضًا سمأل، في منطقة شمال سوريا كانت هذه المملكة تقع في منطقة استراتيجية على طرق التجارة بين الأناضول وبلاد الشام وفيها نجد تداخلًا واضحًا بين التقاليد الحثية-اللووية والعناصر الآرامية وهذا التداخل مهم جدًا لفهم هذه المرحلة فالشعوب القديمة لم تكن تعيش في عوالم مغلقة كانت اللغات والأسماء والآلهة والأنظمة السياسية تتداخل باستمرار.

الآراميون يدخلون المشهد

في الوقت نفسه، كان الآراميون يصعدون بقوة في بلاد الشام ظهرت ممالك آرامية متعددة ومن أهمها دمشق وبيت عديني وبيت أغوشي وممالك أخرى في شمال سوريا والجزيرة وهكذا أصبح المشهد السياسي أكثر تنوعًا.

لم تعد هناك إمبراطورية حثية واحدة تفرض سيطرتها على المنطقة بل مجموعة من الممالك الصغيرة والمتوسطة تتنافس فيما بينها.

آشور تعود

لكن هذا العالم المتعدد لم يستمر مستقلًا إلى الأبد ففي الشرق كانت آشور تعيد بناء قوتها ومع ملوك مثل آشورناصربال الثاني وشلمنصر الثالث، ثم ملوك لاحقين، تحولت الإمبراطورية الآشورية إلى قوة توسعية هائلة وكانت الممالك الصغيرة في بلاد الشام أول من شعر بثقل هذا التوسع.

لماذا أرادت آشور بلاد الشام؟

لم يكن الأمر مجرد رغبة في احتلال الأراضي كانت بلاد الشام مهمة اقتصاديًا واستراتيجيًا فهي تقع على طرق التجارة بين بلاد الرافدين والبحر المتوسط كما أن السيطرة عليها تعني الوصول إلى الموانئ والثروات والموارد.

وكانت الجزية التي تدفعها الممالك التابعة مصدرًا مهمًا للخزينة الآشورية ولهذا أصبحت بلاد الشام هدفًا دائمًا للحملات الآشورية.

معركة قرقر

في عام ٨٥٣ قبل الميلاد وقعت معركة شهيرة قرب قرقر واجه الملك الآشوري شلمنصر الثالث تحالفًا من ملوك بلاد الشام وكان من أبرز المشاركين هدد عزر الدمشقي، المعروف في المصادر الآشورية باسم أدَد-إدري.

وورد أيضًا اسم ملك إسرائيلي هو أخاب.

وهذه المعركة تكشف أن الممالك الشامية كانت قادرة أحيانًا على تشكيل تحالفات واسعة لمواجهة آشور لكنها لم توقف التوسع الآشوري على المدى الطويل.

إسرائيل وآرام ودمشق

كانت مملكة إسرائيل ومملكة دمشق الآرامية من أهم القوى في جنوب بلاد الشام خلال هذه المرحلة وكانت العلاقة بينهما متقلبة فقد يتحاربان وقد يتحالفان لكن ظهور آشور كقوة كبرى غيّر طبيعة الصراع فبدل أن تكون المشكلة الأساسية بين إسرائيل ودمشق فقط، أصبح السؤال الأكبر كيف يمكن التعامل مع آشور؟

سقوط دمشق

في القرن الثامن قبل الميلاد أصبحت آشور أكثر قوة وفي عهد تغلث فلاسر الثالث توسعت الإمبراطورية بقوة نحو بلاد الشام وسقطت دمشق في النهاية أمام الآشوريين عام ٧٣٢ قبل الميلاد وانتهت بذلك المملكة الآرامية المستقلة في دمشق لكن اللغة والثقافة الآرامية لم تختفيا بل حدث العكس ستنتشر الآرامية في ظل الإمبراطورية الآشورية نفسها وهذه مفارقة

تاريخية مهمة قد تسقط الدولة، لكن لغتها قد تصبح أقوى من الدولة التي أسستها.

سقوط مملكة إسرائيل

ثم جاء الدور على مملكة إسرائيل تعرضت المملكة لضغط آشوري شديد وسقطت السامرة، عاصمة المملكة، عام ٧٢٢ قبل الميلاد تقريبًا في عهد سرجون الثاني، بعد الحملة التي بدأت في عهد شلمنصر الخامس وانتهت مملكة إسرائيل الشمالية كدولة مستقلة وأعيد تنظيم المنطقة ضمن الإمبراطورية الآشورية.

ماذا حدث لسكان إسرائيل؟

تذكر السجلات الآشورية عمليات ترحيل للسكان ونُقلت مجموعات من سكان المملكة إلى مناطق مختلفة من الإمبراطورية كما جُلب سكان من مناطق أخرى إلى المنطقة.

ومن هنا ظهرت لاحقًا تقاليد مرتبطة بما يعرف باسم الأسباط العشرة المفقودة.

لكن علينا التمييز بين الروايات الدينية اللاحقة وبين ما نستطيع إثباته تاريخيًا نعرف أن عمليات ترحيل حصلت فعلًا لكن لا نستطيع إعادة بناء مصير كل سكان المملكة أو القول إنهم اختفوا بالكامل.

السامريون

استمرت جماعات في منطقة السامرة ومع مرور الزمن تطورت منها الجماعة التي نعرفها باسم السامريين وكان لديهم تقليد ديني خاص بهم، واعتبروا جبل جرزيم مركزًا مقدسًا لهم وقد اختلفوا مع الجماعات اليهودية في القدس حول عدد من القضايا الدينية والتاريخية وهذا يوضح أن هوية المنطقة أصبحت أكثر تعقيدًا مع مرور الزمن.

يهوذا تبقى

بعد سقوط إسرائيل، بقيت مملكة يهوذا في الجنوب وأصبحت دولة صغيرة تقع بين القوى الكبرى لكنها لم تكن بعيدة عن آشور وسرعان ما ستتعرض لضغط هائل وسيأتي أحد أشهر ملوكها حزقيا وفي عهده ستصل المواجهة مع آشور إلى القدس نفسها و ستحاصر من قبل آشور لكن بابل ستواجه مملكة يهوذا الجنوبية وستكون النتيجة أكثر تدميرًا سقوط القدس تدمير الهيكل الأول وسبي جماعات من سكان يهوذا إلى بابل.

نهاية الممالك الحثية الجديدة وصعود القوى الآشورية

لم تكن الممالك التي ظهرت بعد سقوط الإمبراطورية الحثية قادرة على استعادة الإمبراطورية القديمة لكنها حافظت على جزء من إرثها، وخصوصًا في شمال سوريا وجنوب الأناضول.

وفي الوقت نفسه، كانت المنطقة تدخل عصرًا جديدًا أصبحت فيه آشور القوة الأكثر قدرة على فرض سيطرتها.

كركميش بين الماضي والمستقبل

ظلت كركميش واحدة من أهم المدن في شمال بلاد الشام كان موقعها على الفرات يمنحها أهمية عسكرية وتجارية كبيرة، يقع موقعها الأثري اليوم في جنوب تركيا قرب مدينة جرابلس السورية كما أن ملوكها حافظوا على تقاليد سياسية وفنية تعود في جانب منها إلى العصر الحثي لكن مع توسع آشور، أصبح استقلال كركميش مهددًا وفي النهاية لم تستطع المدينة الصمود أمام القوة الآشورية وفي عام ٧١٧ قبل الميلاد استولى سرجون الثاني على كركميش، وأصبحت جزءًا من الإمبراطورية الآشورية كان سقوطها أكثر من سقوط مدينة.

لقد كان رمزًا لانتهاء آخر المراكز الكبرى التي حملت إرث الإمبراطورية الحثية في شمال سوريا.

الممالك الحثية الجديدة والآراميون

لم تكن الحدود بين هذه الممالك واضحة بالمعنى الحديث فقد نجد في المملكة الواحدة لغة لووية إلى جانب الآرامية، وتقاليد فنية حثية إلى جانب عناصر سورية محلية، وآلهة مشتركة أو متقاربة، ونخبًا سياسية تنحدر من خلفيات مختلفة.

ولهذا فإن وصف هذه الممالك بأنها حثية فقط أو آرامية فقط قد يكون تبسيطًا للتاريخ لقد كانت المنطقة فضاءً ثقافيًا مختلطًا.

الفن الحثي الجديد

ترك فن هذه الممالك آثارًا مميزة ظهرت النقوش الحجرية والتماثيل والواجهات المزينة بالرموز الملكية والدينية ومن أشهر السمات الفنية الأسود المجنحة، المخلوقات المركبة، مشاهد الملوك والآلهة، والنقوش الهيروغليفية اللووية.

وتختلف هذه الأعمال عن فن الإمبراطورية الحثية القديمة، لكنها تحمل معها تقاليد واضحة من العصر السابق.

المراجع

١. Ann E. Killebrew & Gunnar Lehmann (eds.), The Philistines and Other "Sea Peoples" in Text and Archaeology. Society of Biblical Literature, 2013.

هذا أهم مرجع جامع؛ لأنه يجمع النصوص المصرية، الآثار، أصل الفلستيين، شعوب البحر، الفخار، العلاقة بمصر، الاستقرار في الساحل الجنوبي لبلاد الشام، والثقافة المادية.

" Philistines and Egyptians in Southern Coastal Canaan during the Early Iron Age".

جستور

٢. Tristan J. Barako, "Philistines and Egyptians in Southern Coastal Canaan during the Early Iron Age".

٣. Brent Davis, "What Language(s) Did the Philistines Speak?" Near Eastern Archaeology (2018) 81/1.

RCNi Company Limited

٤. Alexander A. Bauer, “Cities of the Sea: Maritime Trade and the Origin of Philistine Settlement in the Early Iron Age Southern Levant.” Oxford Journal of Archaeology 17/2 .(2002), 149–168

مكتبة وايلي الإلكترونية

٥. Guy D. Middleton, “Telling Stories: The Mycenaean Origins of the Philistines.” Oxford .Journal of Archaeology 34/1 (2015), 45–65

٦. Shirly Ben-Dor Evian, “Ramesses III and the ‘Sea-Peoples’: Towards a New Philistine Paradigm.” Oxford Journal of Archaeology 36/3 .(2017), 267–285

٧. Ancient DNA sheds light on the genetic .origins of early Iron Age Philistines

(PubMed Central (PMC

٨. Trevor Bryce, The Kingdom of the Hittites. .Oxford University Press

٩. Trevor Bryce, Life and Society in the Hittite World. Oxford University Press.

١٠. K. Aslıhan Yener & Harry A. Hoffner Jr. (eds.), Recent Developments in Hittite Archaeology and History.

١١. Trevor Bryce, The World of the Neo-Hittite Kingdoms: A Political and Military History.

الكاتبة أماني سليمان

سوريا محافظة الحسكة مدينة القامشلي

مواليد ٢/٨/١٩٨٨

درست في كلية العلوم قسم الكيمياء

أول مؤلفاتها كتاب خواطر بعنوان همسات النسمات

الثاني كتاب خواطر بعنوان صدى الأفكار

الثالث رواية بعنوان يضمدها الأمل

الرابع كتاب خواطر بعنوان عندما تتحدث الروح

الخامس رواية بعنوان أرواح تتأرجح على كفوف السحر

السادس كتاب خواطر بعنوان يا حزني السعيد

السابع رواية بعنوان قبل أن يراها

الثامن قصة بعنوان وكانت الصدمة

التاسع رواية بعنوان ترتيب القدر

العاشر مسرحية بعنوان النبوءة

الحادي عشر كتاب خواطر بعنوان كِلانا يبحث عني

الثاني عشر رواية بعنوان حين تكلم الموت

الثالث عشر رواية بعنوان نالت مرادها

الرابع عشر رواية بعنوان سلام فوق رماد الماضي

الخامس عشر خواطر بعنوان انا امرأة لا يعبرها الزمن

السادس عشر خواطر بعنوان على مائدة الوجدان

السابع عشر سكتشات مسرحية بعنوان من رحم المعاناة

الثامن عشر مونولوجات مسرحية بعنوان القوة تنبع من الداخل

التاسع عشر مونولوجات مسرحية بعنوان أنا والحياة

العشرون مونولوجات مسرحية بعنوان علمتني الحياة

الحادي والعشرون رواية بعنوان لم نخرج سالمين

الثاني والعشرون مسرحية بعنوان مقهى النصائح المجّانية

الثالث والعشرون مسرحية غنائية بعنوان ساحة المطر

الرابع والعشرون مسرحية بعنوان مكتب تصليح القدر

الخامس و العشرون مسرحية بعنوان مقهى الرسائل غير المرسلة

السادس و العشرون مسرحية بعنوان شركة ضائعة بين القرارات

السابع و العشرون مسرحية غنائية بعنوان قناديل المنى

الثامن و العشرون خمس سكتشات مسرحية بعنوان مجرات مضيئة

التاسع و العشرون مسرحية بعنوان صندوق الاصوات القديمة

الثلاثون كتاب خواطر بعنوان مسافة نجاة

الحادي و الثلاثون كتاب خواطر بعنوان ألوان قلبي

الثاني و الثلاثون رواية بعنوان على هامش القرار

الثالث و الثلاثون مسرحية بعنوان يوميات عريس مفلس

الرابع و الثلاثون مسرحية بعنوان عريس بالغلط

الخامس و الثلاثون مسرحية مزاد العرسان

السادس و الثلاثون مسرحية يوم بدون تمثيل

السابع و الثلاثون مسرحية غلط بغلط

الثامن و الثلاثون قصة بعنوان أجساد من كلمات

التاسع والثلاثون مسرحية حلم ع السريع

الاربعون مسرحية غنائية للأطفال المدينة التي تضحك

الواحد و الاربعون مسرحية غنائية بعنوان مدينة تزهر حين نحب

الثاني و الاربعون مسرحية بعنوان كل الطرق تؤدي إلي

الثالث و الاربعون مسرحية بعنوان آخر بث

الرابع و الاربعون مسرحية بعنوان محكمة الضمير

الخامس و الاربعون مسرحية بعنوان العريس الضايع

السادس والاربعون مونولوجات مسرحية بعنوان بدون تجميل

السابع و الاربعون مونولوجات مسرحية بعنوان بقايا انسان

الثامن و الاربعون مسرحية بعنوان مدينة الكذب

التاسع و الاربعون مسرحية بعنوان معجب سبع نجوم

الخمسون مسرحية بعنوان الجلسة الأخيرة

الواحد و الخمسون كتاب خواطر بعنوان قيد من حرير

الثاني والخمسون كتاب بعنوان من المجد إلى الطين(١)الحضارة السومرية

الثالث و الخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد(٢)الحضارة الأكدية

الرابع و الخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد(٣)الحضارة البابلية

الخامس والخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد(٤)الحضارة الآشورية

السادس والخمسون كتاب بعنوان وصفات الحب

السابع و الخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض(١)حضارتي إيبلا وماري

الثامن و الخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٢)اوغاريت والآراميون

التاسع والخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٣)الكنعانيون والفينيقيون

الستون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٤) الحوريون، العمونيون،

المؤابيون، الأدوميون، الأنباط

الوحد والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٥)الفلستيون والحثيون